من أسرار التعبير القرآنى
فى ســـــورة النبأ

الدكتور
محمد عبد المنعم على متولى

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

"..رب اشرح لى صدرى .. ويسر لى أمرى. واحلل عقدة

من لسانى. يفقهوا قولى"

صدق الله العظيم

"سورة طه / ٢٥ – ٢٨"

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمـــد لله رب العـــالمين. والصـــلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا ونبينا محمد أبن عبد الله وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وعلى أتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد

فالقرآن الكريم كتاب العقيدة الأوحد الذى لا يزال على حاله كما أنزله الله – عز وجل – لم تعبث به يد العابثين لأن الله – سبحانه – قد تعهد بحفظه فقال تعالى: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" (سورة الحجر /٩).

وكـــل نظـــر فيـــه يتطلب الأناة، والصبر، ومعاودة الفكر، وتقليب الفكر، والإطمئنان قبل إصدار الأحكام، حتى لا تزل القدم، ويقع الباحث فيما يفتح بابا من الشبهات كان موصدا، وربما يختلط الأمر على الناس.

مـــن هـــنا كـــان سبيل الدراسات القرآنية صعب المخاطر، وكان ارتيادها يتطلب الحذر والاتزان.

ومـــن المعـــلوم أن العـــلماء والباحثين قد أطالوا الوقوف ودققوا النظر فى جوانبه المضيئة على تعددها ما بين تفسير، وبلاغة، ونقد، وغيرها يتأملون معانية ويـــتذوقون أســـاليبه، ويقدحون زناد فكرهم فيما تشتمل عليه آياته من رائع النظم، وعجيب التركيب، وما يوحى به من دلالات وتأملات.

ولا شـــك فى أن أغـــلى أمانى المسلم أن يشرفه الله – عز وجل – بخدمة القرآن الكريم وأن يوفقه لعمل يبرز به بعض جوانب الخير فى هذا الكتاب الذى لا تغنى عجائبه ولا ينفذ عطاؤه.

ولقد قصدت من خلال البحث فى هذا الموضوع:

"من أسرار التعبير القرآنى فى سورة النبأ"
عدة دواع وغايات يمكن إجمالها فيما يلى:
أولا : ربــط الــدرس البلاغى وتوظيف القاعدة البلاغية لخدمة القرآن الكريم حتى يؤتى – أى الدرس البلاغى – ثماره المرجوة منه.
ثانيا : محاولة الخروج بالدرس البلاغى من دائرته المعهورة وذلك بتغليب الجانب التطبيقى على الجانب النظرى التعقيدى.
ثالــثا: أن يقــف القارئ الكريم على الموضوعات التى اشتملت عليها هذه السورة المباركة والتى يمكن إيرادها على سبيل الإجمالى فيما يأتى:
أ- سؤال المشركين عن البعث ورسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.
ب- تهديد المشركين على إنكارهم إياه.
جـ- إقامة الأدلة على إمكان حصوله.
د – أحداث يوم القيامة.
هـ- ما يلاقيه المكذبون من العذاب.
و – فوز المتقين بجنات النعيم.
ز – إن هذا اليوم حق لا ريب فيه.
ح – إنذار الكافرين بالعذاب الأليم وتمنيهم فى ذلك اليوم أن لو كانوا ترابا.
وممــا ينبغى أن يكون على ذكر دائما أن البحث فى القرآن الكريم أو فى موضوع مســتمد مــنه لا يســتنفد كل ما فيه أو يستقصى ما يوحى ويشير إليه فهو دائما: "لايخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه".
وبعــد : فحسبى أنها محاولة لإظهار بعض أسرار التعبير القرآنى فى "سورة النبأ" فإن أتت ثمارها المرجوة فــ"ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم" وإن كانت الأخرى فإنى استغفر الله – عز وجل – وأتوب إليه من أية زلة فى الفهم

أو الاستنباط ومن أى خطأ فى التعبير أو التصوير. وحسبى تلك المعايشة الروحية والفكرية للقرآن الكريم ولن يحرم المخطئ من الأجر إن شاء الله تعالى.

والحمـــد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

"ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير"

"وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب".

الدكتور

محمد عبد المنعم على متولى

ســـــورة النـــبــــأ

بين يدى السورة

سميت هذه السورة المباركة فى أكثر المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة "سورة النبأ" لوقوع كلمة "النبأ" فى أولها. وفى بعض كتب التفاسير تسمى بـــ"سورة النـــبأ العظيـــم"[1] وسميت فى بعض المصاحف وفى صحيح البخارى وفى تفسير الكشاف وابن عطية "سورة عم يتساءلون"[2] وفى تفسير القرطبى وتناسق الدرر فى تناســـب الســـور للسيوطى وفتح القدير للشوكانى تسمى بـــ"سورة عم"[3] أى بدون زيـــادة "يتســـاءلون" تســـمية لهـــا بأول جملة فيها. وتسمى "سورة التساؤل" لوقوع "يتساءلون" فى أولها وتسمى سورة "المعصرات" لقوله – عز وجل – فيها: "وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا" (سورة النبأ/١٤) فهذه خمسة أسماء.[4]

واقتصـــر فى الإتقـــان ومعترك الأقران للسيوطى على أربعة أسماء: عم والنـــبأ والتســـاؤل والمعصـــرات.[5] وهى مكيـــة بالاتفاق وآيها أربعون أو إحدى وأربعـــون آيـــة[6] ونـــزلت بعد سورة المعارج وقبل سورة النازعات وترتيبها فى المصحف الشريف: ثمان وسبعون. وعدت السورة الثمانين فى ترتيب نزول السور عند جابر أبن زيد وعدد كلماتها: ثلاث وسبعون ومائة كلمة وعدد حروفها: ثمانمائة وستة عشر حرفا.[7]

---

(1) الفتوحات الإلهية ٤/٤٧٠ وحاشية الصاوى ٤/٢٨٠.
(2) فتح البارى ٨/٥٥٧ والكشاف ٤/٦٨٣.
(3) تفسير القرطبى ١٠/٢٠٦ وتناسق الدرر/٩١ وفتح القدير ٥/٣٦٢.
(4) روح المعانى ٣٠/٢.
(5) الإتقان ١/١٩٦ ومعترك الأقران ٣/٢٤٥.
(6) إرشاد العقل السليم ٥/٨٠٩.
(7) التفسير القرآنى للقرآن أ/ عبد الكريم الخطيب ١٥/١٤١١.

غاية السورة ومقصودها:

معظـــم مقصــــودها ذكـــر القيامة وخلق الأرض والسماء وبيان نفع الغيث وكيفية النشر والبعث وعذاب العاصين وثواب المطيعين من المؤمنين وقيام الملائكة فى القيامـــة مـــع المؤمنين وتمنى الكافر المحال فى قوله تعالى: "ياليتى كنت ترابا" (سورة النبأ / ٤٠)[١]

سبب نزول السورة:

أخــــرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن قال: لما بعث النبى – صلى الله عليه وسلم – جعل المشركون يتساءلون بينهم ما الذى جاء به؟ ويتجادلون حول بعثته وما أنزل عليه من الوحى فنزلت : "عم يتساءلون عن النبأ العظيم"[٢] (سورة النبأ ٢،١).

مناسبة السورة لما قبلها فى ترتيب المصحف الشريف:

كـــانت "سورة المرسلات" قبل هذه السورة – حديثا متصلا عن المشركين وكانت نهاية هذا الحديث معهم أن ألقى بهم فى جهنم وأخذ كل منهم مكانه فيها.. ثم أعيدوا إلى مكانهم من هذه الحياة الدنيا حيث يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام دون أن يكـــون لهم من تلك الرحلة المشئومة بهم إلى جهنم وما رأوامن أهوالها ما يغير شيئا مما فى أنفسهم من ضلال وعناد فمازالوا على موقفهم من آيات الله التى تتلى عـــليهم ومـــا زالـــوا فى تكذيب لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفى عجب

---

(١) بصائر ذوى التمييز ٤٩٧/١.
(٢) تفســـير الـــبحر المحيــط ٤١٠/٨ ولـــباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى بهامش تفسير الجلالين ١٧٣/٢ والفتوحات الإلهية ٤٧٠/٤.

واستنكار حتى ليتساءل الوجود كله: إذن فبأى حديث بعد هذا الحديث يؤمن هؤلاء الضالون المكذبون؟

وتجئ "سورة النبأ" بعد هذا التساؤل الاستنكارى لتمسك بهم وهم فى حديث عن هذا الحديث وفى بلبلة واضطراب من أمره وفى تنازع واختلاف فيه لا يجدون – حتى فى أودية الزورو البهتان – الكلمة التى يقولونها فيه والتهمة التى يلصقونها بـــه ... إن أية قوله زوريزينها لهم الشيطان ليلقوا بها فى وجه القرآن لتسقط على رءوســـهم كمـــا يسقط الحصى يرمى به فى وجه الشمس ليخفى ضوءها أو يعطل مسيرتها.(١)

هذا : ويمكن إجمال تلك المناسبة فى عدة وجوه :

١- اشـــتمالها عـــلى إثبات القدرة على البعث الذى ذكر فى سورة المرسلات أن الكافرين كذبوا به.

٢- اشتمال السورتين على أشياء فى الكون المحيط بالإنسان حيث قال الله – عز وجـــل – فى ســـورة المرسلات "ألم نجعل الأرض كفاتا"/٢٥) بعد أن قال – ســـبحانه – "ألم نهلك الأولين"/١٦) و "ألم نخلقكم من ماء مهين"/٢٠) وقال فى ســـورة النبأ: "ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا" /٦،٧) وفى هذا تأنيب وتقريع للمكذبين.

٣- أن فى سورة النبأ تفصيل ما أجمل فى سورة المرسلات عن يوم الفصل فهناك استهلت السورة بقسم متعدد الألوان والمقسم عليه هو ما كان المشركون يكذبون بـــه وهـــو اليوم الآخر فقال فى جواب القسم: "إنما توعدون لواقع"/٧) ثم ذكر علامات ذلك الوقوع فقال: "فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت وإذا الجبال

---

(١) التفسير القرآنى للقرآن ١٥/١٤١١.

نســفت. وإذا الرســل أقتت. لأى يوم أجلت ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصــل. ويــل يومئذ للمكذبين" (١٥/٨) فناسب أن تكون "سورة النبأ" شارحة وموضحة ليوم الفصل لأن الحق – سبحانه – حينما يقول: "وما أدراك ما يوم الفصــل" – يدل بذلك – ولله العلم – على أن يوم الفصل شئ عظيم مهول شئ يجب أن تتنبه الأذهان إليه شئ يجب أن يستعد له فقال – عز وجل –: "إن يوم الفصل كان ميقاتا يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا ... إلخ سورة النبأ.

٤- أن كــل مــن الســورتين وصف الجنة والنار وما ينعم به المتقون ويعذب به المكذبون وبيان ذلك: أن "سورة المرسلات" عرضت لألوان العذاب فى الآخرة للكافرين ولم تعرض لألوان النعيم إلا اللون واحد وهو قوله تعالى: "إن المتقين فى ظلال وعيون" /٤١. وجاءت "سورة النبأ" لتعطى الجزاء الوفاق تعطى لكل واحد من القسمين حظة.[١]

٥- وقيــل : إنه – تعالى – لما ختم "سورة المرسلات" بقوله – سبحانه – "فبأى حديــث بعــده يؤمـــنون"/٥٠) وكان المراد بالحديث فيه – ولله العلم – القرآن الكــريم. افتتح "سورة النبأ" بتهويل التساؤل عنه والاستهزاء به وهو – أى هذا القــول – مبنى على ما روى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أن المراد بــ"النبأ العظيــم" القرآن الكريم والجمهور على أنه البعث وهو – والله أعلم بمراده – الأنسب بالآيات بعد.[٢]

---

(١) أنظر : نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ١٠٩/٢١ وتناسق الدرر للسيوطى/٩١.
(٢) البحر المحيط ٤١٠/٥ وروح المعانى ٢/٣٠.

مقدمة السورة

بســم الله الرحمن الرحيم : "عم يتساءلون عن النبأ العظيم. الذى هم فيه مختلفون . كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون." (سورة النبأ ١-٥).

"عم" لفظ مركب من كلمتين هما: "عن" الجارة و "ما" الاستفهامية التى يسأل بهـا عمـا لا يعقـل بمعـنى: عن أى شئ يتساءلون. وهى فى محل جر والجار والمجرور متعلق بالفعل "يتساءلون" وأصل ترتيبه - فى غير القرآن - يتساءلون عَنْ مَا. فقدم اسم الاستفهام "ما" لأنه لا يقع إلا فى صدر الكلام المستفهم به وإذ قد كان اسم الاستفهام مقترنا بحرف الجر الذى تعدى به الفعل إلى اسم الاستفهام وكان الحرف لاينفصل عن مجروره قُدِّ مَا مَعاً فصار: "عما يتساءلون" ثم حذفت ألف "ما" الاستفهامية لدخول حرف الجر عليها وبقيت الفتحة دليلا عليها ثم أدغمت النون فى الميـم لمشاركتها فى الغنة فصارت "عم" وهذا الحذف هو الاستعمال السائد فيها مع حروف الجر نحو: إلى و" إلام ، والباء و بم ، وحنى و حتام، وعلى وعلام، وعن وعم، وفى و فيم، اللام و لم ، من و مم وقد أشار ابن مالك إلى ذلك بقوله:

وَمَـا فِى الاسْـتِفْهَامِ إنْ جُـرَّتْ حُذِفَ ألِفُهَـا وَأولِهَـا الْهَـا إنْ تَقِـفْ[1]

وذكروا فى سبب هذا الحذف وجوها منها:

١- اتصال "ما" بحرف الجر حتى صارت كجزء منه فحذفت الألف لتنبئ عن شدة هذا الاتصال.

٢- أو إن السبب فى هذا الحذف التخفيف لكثرة ورودها على اللسان.

٣- أو حذفت الألف من "ما" الاستفهامية للفرق بين الاستفهام والخبر ولهذا حذفت فى نحو قوله تعالى: "عفا الله عنك لم أذنت لهم..." (سورة التوبة/٤٣) وقوله -

---

(١) ألفية ابن مالك فى النحو والصرف /٧٢ باب الوقف.

عــز وجــل -: ... فبم تبشرون" (سورة الحجر /٥٤) "... فناظرة بم يرجع المرســلون" (سورة النمل/٣٥) "... لم تقولوا مالا تفعلون" (سورة الصف/٢) "فيــم أنت من ذكراها" (سورة النازعات/٤٣) وثبتت فى نحو قوله تعالى: "... والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك..." (سورة النساء/١٦٢) "...لمسكم فيما أخذ تم عذاب عظيم" (سورة الأنفال/٦٨) "... لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم" (سورة النور/١٤) "...... ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى" (سورة ص/٧٥) فكمــا لا تحــذف الألف فى الخبر لاتثبت فى الاستفهام[١] ولعل هذا الوجه هو الــذى عــبر عــنه بعضهم بقوله: "وقد جرى الاستعمال الفصيح على أن "ما" الاســتفهامية إذا دخل عليها حرف الجر يحذف الألف المختومة هى به تفرقة بينها وبين "ما" الموصوله"[٢].

وقد تبقى ألف "ما" الاستفهامية مع الجار دون حذف ولكنه قليل كما فى قول حسان - رضى الله عنه-:

عــلى مــا قــام يشــتمنى لــئيم كخــنزير تمــرغ فى رمــاد

ومعــناه : عــلى أى شئ يسبنى لئيم مثل الخنزير المتمرغ فى الرماد لذله فــ"ما" - فى قوله حسان- استفهام انكارى وكان حقها حذف الألف لدخول حرف الجــر عليها إلا أنها لم تحذف وهذا قليل وعليه وردت بعض القراءات الشاذة "عما يتساءلون"[٣].

(١) راجع : مفاتيح الغيب للرازى ١٢٩/١٦ ومغنى اللبيب لأبن هشام ٢٩٨/١ ، ٢٩٩.
(٢) تفسير التحرير والتنوير ٧/٣٠.
(٣) أنظر : الكشاف ٦٨٣/٤ وحاشية الصاوى ٢٨١/٤.

وبعضهم يدخل هاء السكت عوضا عن ألف "ما" الاستفهامية فى الوقت فيقول : "عمه" ونقل عن ابن كثير إثبات الهاء فى الوصل أيضا إجراء للوصل مجرى الوقف[١] .

و "ما" لفظة وضعت لطلب حقائق الأشياء وماهيتها فتقول: ما الملائكة؟ وما الروح؟ وقد يطلب بها الصفة والحال كما فى نحو قولنا: ما زيد؟ فيقال: عالم أو طبيب. وهذا يقتضى كون المسئول عنه مجهولا.

وما فيها من الإبهام للإيذان بفخامة شأن المسئول عنه وهو له وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة كأنه قال: عن أى شئ عظيم الشأن يتساءلون.

ثم إن الشئ العظيم الذى يكون لفرط عظمه بحيث يعجز العقل عن أن يحيط بكنهه يبقى من هذا الجانب مجهولا وبهذا يكون بين الشئ المسئول عنه بلفظ "ما" وبين الشئ العظيم مشابهة تجعل هذا اللفظ دليلا على عظمة الشئ المطلوب وعلو شأنه ومن ذلك قوله تعالى: "وما أدراك ما سجين" (سورة المطففين /٨) "وما أدراك ما العقبة" (سورة البلد/١٢) "وما أدراك ما ليلة القدر" (سورة القدر/٢) "وما أدراك القارعة" (سورة القارعة/٣) وقولنا : زيد ما زيد؟[٢]

والضمير فى قوله تعالى: "يتساءلون" يجوز أن يكون ضمير جماعة الغائبين مرادا به أهل مكة – على ما يقوله أكثر المفسرين – ولم يسبق لأهل مكة (أى للمشركين) ذكر فى هذا الكلام ولكن ذكرهم متكرر فى القرآن الكريم فصاروا معروفين بالقصد من بعض ضمائره وإشاراته المبهمة كالضمير فى قوله تعالى "حتى توارت بالحجاب" (سورة ص /٣٢) يعنى الشمس. وقوله – عز وجل – "كلا إذا بلغت التراقى" (سورة القيامة/٢٦) يعنى الروح. مع مافى الترك (أى فى ترك

---

(١) راجع : الكشاف ٦٨٤/٤ والفتوحات الإلهية ٤٧٠/٤.
(٢) أنظر : مفاتيح الغيب ١٣٠/٤ وإرشاد العقل السليم ٨١٠/٥.

ذكـــر أهـــل مكة) على ما قيل من التحقير والإهانة لإشعاره بأن ذكرهم مما يصان عنه ساحة الذكر الحكيم ولا يتوهم العكس لمنع المقام عنه.[١]

ويجـــوز أن يكون أصل الضمير لجماعة المخاطبين "تتساءلون" وعدل عنه لجماعـــة الغائـــبين "يتســـاءلون" إهمالا لشأنهم وحرمانهم من شرف الخطاب لأنهم تعاموا عن كلام واضح وعليه يكون فى الكلام التفات على رأى السكاكى–رحمه الله – . ويجـــوز أن يكون أصل الضمير لجماعة المخاطبين "تتساءلون" وحينئذ يحمل الكـــلام على التعريض بالمخاطبين وتعجب السامعين من حالهم لأن الأمر المستفهم عنه أمر عظيم واضح لإخفاء فيه ولا شبهة.

وقيل إن الضمير لجميع الناس فكلهم كانوا يتساءلون عنه لعظم شأنه عندهم وعـــليه يكون الاختلاف، الداعى إلى التساؤل هو: تصديق المؤمن وتكذيب الكافر بمعـــنى أن سؤال المسلمين ليزدادوا خشية وإيمانا وسؤال غيرهم استهزاء ليزدادوا كفرا وطغيانا وهو خلاف ما يقتضيه ظاهر الآيات بعد.

وماضى هذا الفعل "تساءل" يدل على التشارك فلا يكون إلا من اثنين فأكثر ومـــادة "التساؤل" غير مادة "سأل" فسأل "تقتضى فاعلا يقع منه السؤال ومفعولا يقع عليه السؤال تقول: سألت فلانا عن كذا.

لكن "تساءل" تجمع الأمرين معا كما فى قولنا: "تساءل القوم" فكل واحد منهم صار ســـائلا مرة ومسئولا مرة أخرى وكما فى قولنا: "تراءى القوم" بمعنى أن كل واحد مـــنهم رأى الآخـــر فكل واحد من الفاعل والمفعول يتواردان هذا يكون فاعلا مرة ويكون مفعولا مرة أخرى.

---

(١) راجع : حاشية الشهاب ٣٠٠/٨ و ٣٠١.

ومـــادة السؤال هنا: يجوز أن تكون مستعملة فى حقيقتها بأن يسأل بعضهم بعضـــا ســـؤال متطلع للعلم لأنهم حينئذ لم يزالوا فى شك من صحة ما أنبئوا به ثم استقر أمرهم على الإنكار.

ويجـــوز أن تكـــون مستعملة فى المجاز الصورى يتظاهرون بالسؤال وهم موقـــنون بانـــتفاء وقوع ما يتساءلون عنه فيكونون قصدوا بالسؤال الاستهزاء ولذا سمى جدا لهم وإنكارهم وعنادهم – إذا تليت عليهم آياته – مطلق سؤال.[١]

وذهـــب المفسرون فريقين فى كلتا الطريقتين يرجح كل فريق ما ذهب إليه والـــذى أميـــل إليـــه – ولله العـــلم – حمل الآية على كلتيهما لأن المشركين كانوا مـــتفاوتين فى الـــتكذيب فعن ابن عباس – رضى الله عنه – لما نزل القرآن كانت قريش يتحدثون فيما بينهم فمنهم مصدق ومنهم مكذب" وعن الحسن وقتادة مثل قول ابن عباس.

وقال الفراء: إن "التساؤل" قد يستعمل فى الدلالة على معنى التحدث وإن لم يكن من بعضهم لبعض سؤال كقوله تعالى: "فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قـــائل منهم إنى كان لى قرين يقول أئنك لمن المصدقين" (سورة الصافات ٥٠/٥٢) وعليه يكون معنى الكلام هنا : عم يتحدثون؟[٢]

وقد تم الكلام عند قوله تعالى: "يتساءلون" والوقف عندها وهى جملة إبتدائية لا محل لها والاستفهام فى هذا النظم الكريم وارد على طريق مخاطبات العرب ولذا كان مجازا عن التفخيم والتهويل والتهديد والتعجيب.[٣] والاستعظام وتفخيم الحقيقة التى يختلفون عليها وهى أمر عظيم لاخفاء فيه ولا شبهة.

---

(١) نظم الدرر للبقاعى ١٩١/٢١.
(٢) مفاتيح الغيب ١٣٠/١٦.
(٣) أنظر تأويل مشكل القرآن /٢٧٩ والنهر الماد من البحر المحيط ٤١٠/٨.

ولا يمكـن حمـل الاسـتفهام على حقيقته لأن المطلوب به لابد أن يكون مجهولا عند الطالب – وحاشا لله – فالاستفهام أو التشبيه بالنسبة إلى الناس لا إلى الله عز وجل.

هـذا : وافتتاح السورة المباركة بهذا الاستفهام افتتاح تشويق ثم تهويل لما سيذكر بعـده فهـو من الفواتح البديعة لما فيها من أسلوب عزيز غير مألوف ومن تشويق بطريقة الإجمال ثم التفصيل المؤدية لتمكن الخبر الآتى بعده فى نفس السامع أكمل تمكن.

وإذا كان هذا الافتتاح مؤذنا بعظيم أمر كان مؤذنا بالتصدى لقول فصل فيه ولمـا كـان فى ذلك إشعار بأهم ما فيه خوضهم يؤمئذ يجعل افتتاح الكلام به من يراعه الاستهلال والموجه إليه الاستفهام من قبيل خطاب غير المعين[١] "

عن النبأ العظيم. الذى هم فيه مختلفون" (سورة النبأ/٢ ، ٣).

"النـبأ" الخـبر قيل مطلقا فيكون مرادفا للفظ الخبر وهو الذى جرى عليه إطـلاق الصحاح واللسان والقاموس[٢] وقال الراغب: "النبأ" خبر ذو فائدة عظيمة يحصـل بـه علم أو غلبة ظن ولا يقال للخبر فى الأصل : "نبأ" حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة وحق الخبر الذى يقال فيه "نبأ" أن يتعرى عن الكذب"[٣] .

وهذا فرق حسن ولا أحسب البلغاء جروا إلا على نحو ما قال الراغب فلا يقال للخبر عن الأمور المعتادة: "نبأ" وذلك ما تدل عليه موارد استعمال لفظ "نبأ" فى كـلام البلغاء وأحسب أن الذين أطلقوا مرادفة "النبأ" "للخبر" راعوا مايقع فى بعض كـلام الـناس مـن تسامح بإطلاق النبأ بمعنى مطلق الخبر لضرب من التأويل أو

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٦ و ٩.
(٢) راجع : مادة "نبأ" فى مختار الصحاح ولسان العرب وترتيب القاموس المحيط.
(٣) المفردات فى غريب القرآن مادة "نبأ".

المجاز المرسل بالإطلاق ولتقييد فكثر ذلك فى الكلام كثرة عسر معها تحديد مواقع الكلمتين ولكن أبلغ الكلام لا يليق تخريجه إلا على أدق مواقع الاستعمال.

وعلى ذلك فـ"النبأ" ليس مطلق خبر دائما وإنما هو الخبر الخطير الشأن الذى يتعلق بأمر عظيم وهو هنا: البعث بعد الموت أو القرآن الكريم أو بعث النبى صلى الله عليه وسلم.[١]

وإذا رجعنا إلى قوله – تعالى – فى "سورة ص" "قل هو نبأ عظيم"/٦٧ نجد أن ابن كثير[٢] – رحمه الله – قد ذكر هناك قولا واحدا فيه هو أنه: القرآن الكريم كما نجد النسفى – رحمه الله – قد ذكر قولا واحدا فيه هو أنه : بعثة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولعل المرحوم الدكتور/ محمد عبد الله دراز أخذ اسم كتابه "النبأ العظيم" من هاتين الآيتين مما يشير إلى ترجيحه الرأى القائل بأن النبأ هو: القرآن الكريم وهو قول مجاهد رحمه الله.

والذى أميل إليه هو: ولله العلم بمراده – أن التعريف فى "النبأ" تعريف الجنس فيشمل كل نبأ عظيم أنباهم به الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأول ذلك إنباؤه بأن القرآن الكريم كلام الله – عز وجل – وما تضمنه القرآن من إبطال الشرك ومن إثبات بعث الناس يوم القيامة وما يروى عن بعض السلف من تعيين نبأ خاص يحمل على التمثيل بدليل أن النظم القرآنى هنا لم يحدد ما يتساءلون عنه بلفظه وإنما ذكره بوصفه فقال: "النبأ العظيم".

---

(١) راجع : الكشاف ٦٨٤/٤ ومفاتيح الغيب ١٣٢/١٦ و ١٣٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٢/٤.

و"العظيـم" حقيقـته: كـبير الجسم ويستعار للأمر المهم لأن أهمية المعنى تـتخيل بكبر الجسم فى أنها تقع عند مدكرها كمر أى الجسم الكبير فى مرأى العين وشاعت هذه الاستعارة حتى ساوت الحقيقة.[١]

هذا : وقوله عز وجل : "عن النبأ العظيم" جملة لا محل لها استئنافية الجار والمجـرور فيهـا بيـان لذلك الشئ المفخم المسئول عنه فهو يتعلق بفعل محذوف إيجـازا للعلم به وبعدا عن التكرار غير المفيد والقرآن الكريم ينأى عن ذلك ويدل عـليه مـا قبله والتقدير: "يتساءلون عن النبأ العظيم" وقال الزجاج فى هذا المعنى: الكـلام تام فى قوله تعالى: "عم يتساءلون" ثم كان مقتضى القول أن يجيب مجيب فيقـول: يتسـاءولون عـن النـبأ... فاقتضى إيجاز القرآن وبلاغته حذف الفعل "يتسـاءلون" لدلالة الأول عليه. وفى وصف "النبأ" بـ "العظيم" تأكيد لخطره وزيادة فى التـنويه بـه مما يدل على أنه ليس مطلق خبر وإنما هو: الخبر الخطير الشأن الـذى يتعلق بأمر عظيم وكأن الحق – سبحانه – يستنكر السؤال عن النبأ لأنه من الوضـوح ومـن البداهة بحيث يجب ألا يكون موضع سؤال لأنه نبأ عظيم وأمر واضـح جلى تقوم عليه الأدلة. وقيل : إن قوله – عز وجل – : "عن النبأ العظيم" جـواب عن السؤال بـ"عم" وهو أيضا بيان لشأن المسئول عنه إثر تفخيمه بإبهام أمره – حين استفهم بـ"ما" فى "عم" وتوجيه أذهان السامعين نحوه وتنزيلهم منزلة المستفهمين فإن إيراده على طريقة الاستفهام من علام الغيوب للتنبيه – والله العلم – على أنه لانقطاع قرينه وانعدام نظيره خارج عن دائرة علوم الخلق خليق بأن يعتنى بأمـره وبمعرفته ويسأل عنه كأن قيل : عن أى شئ يتساءلون؟ هل أخبركم به؟ ثم قيل بطريق الجواب: "عن النبأ العظيم" على منهاج قوله – تعالى – "... لمن الملك

([١]) التحرير والتوير ١٠/٣٠.

اليـــوم لله الواحـــد القهار" (سورة غافر/١٦) ومن المعلوم أن إيراد الكلام بصورة السـؤال والجـواب أقرب إلى التفهيم والإيضاح وتثبيت الجواب فى نفس السائل. فـ"عن" متعلقة بما يدل عليه المذكور من مضمر حقه أن يقدر بعدها مسارعة إلى الـبيان ومراعاة لترتيب السؤال وفى إجابة الله – عز وجل – عن السؤال بـ"عم" دليل على علمه – سبحانه – بالغيب بل بجميع المعلومات. وقيل : إن قبل "عن" فى قولـه تعالى: "عن النبأ العظيم" استفهام مضمر كأنه قيل: عم يتساءلون؟ أعن النبأ العظيم؟.[١]

وعلى هذا القول لا يكون النظم الكريم "عن النبأ العظيم" جوابا عن السؤال بـــ"عم" بل هو استفهام بعد استفهام وكرر لتقرير ما يراد بهذا السؤال من التفخيم والتعظيم.

وحمل الشهاب[٢] – رحمه الله – هذا القول الكريم على الاستئناف البيانى[٣] الـذى هـو جملة واقعة فى سؤال مقدر إلا أن هذا الحمل بعيد صناعة إذ لا يظهر تقديـر سؤال يكون هذا جوابه لأن السؤال مصرح به وهو: "عم يتساءلون" فكيف يقدر مع وجوده؟

ثـم وصـف "النـبأ" بقوله – سبحانه – "الذى هم فيه مختلفون" بعد وصفه بـ"العظيم" لتأكيد شأنه وخطره إثر تأكيد والمبالغة فى ذلك والإشعار بمدار التساؤل عنه. والفاء فى قوله – عز وجل – "فيه" إما للسببية أى يسببه أو للظرفية المجازية

(١) إرشاد العقل السليم ٥/٨١٠.
(٢) حاشية الشهاب ٨/٣٠١.
(٣) وقـد تناوله البلاغيون أثناء دراستهم لمواضع الفصل والوصل بين الجمل تحت عنوانه: "شبه كمـال الاتصال" وقصدوا به : أن تنزل الجملة الثانية من الأولى منزلة الجواب من السؤال مـع ملاحظـة أن السـؤال المتولد من الجملة الأولى التى فصلت عنها جملة الجواب ليس مصرحا به وإنما يفهم بالفحوى. وقد تحدث البلاغيون عن صوره وأسراره التى لاتحصى.

جـــارة وضمير الجر للمفرد الغائب العائد على "النبأ العظيم" مبنى على الكسر فى محل جر والجار والمجرور متعلق بـــ"مختلفون" من قبيل تعلق شبه الجملة بما يشبه الفعـــل وتقديم "فيه" على "مختلفون" للدلالة – والله العلم – على الاهتمام بالمجرور وللإشـــعار بـــأن الإخـــتلاف ما كان حقه أن يتعلق به مع ما فى التقديم من رعاية للفواصل.

وجئ بالجملة الاسمية "هم فيه مختلفون" فى صلة الموصول "الذى" دون أن يقول: "الذين يختلفون فيه أو نحو ذلك للدلالة – والله العلم – على أن الاختلاف فى أمر هذا "النبأ" متمكن منهم ودائم فيهم وثابتون عليه فهم راسخون فى الاختلاف فيه فمن جازم باستحالته يقول: "إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين" (سورة المؤمنون /٣٧). ومن شاك يقول: "... ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين" (سورة الجاثية/٣٢).

وقيـــل : منهم من ينكر المعادين "الجسمانى والروحانى" معا كهؤلاء ومنهم مـــن ينكر المعاد الجسمانى فقط كجمهور النصارى.[١] وقيل : الضمير فى قوله – عـــز وجل – "هم فيه مختلفون" للمسلمين والكافرين وكانوا جميعا يسألون عنه أما المسلم فليزداد خشية واستعدادا ويقينا فى دينه وأما الكافر فليزداد استهزاء وسخرية وكفـــرا وعنادا وإيرادا للشكوك والشبهات[٢] إلا أن هذا القول يرده قوله – تعالى – بعـــد ذلك: "كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون" (سورة النبأ/٤ ،٥) لأنه صريح فى أن المراد – والله العلم – اختلاف الجاهلين به المنكرين له إذ عليه يدور الردع والوعيد لاعلى خلاف المؤمنين لهم.

---

(١) فتح القدير للشوكانى ٣٦٣/٥.
(٢) الكشاف ٦٨٤/٤ ومفاتيح الغيب ١٣١/١٦.

ثـم أخـذ – سبحانه – يرد علهيم متوعدا لهم فقال: "كلا **سيعلمون ثم كلا سيعلمون**" (سورة النبأ/٤ و ٥) "كلا"[1] كلمة تذكر غالبا لرد شئ قد تقدم فهى لزجر وردع هؤلاء المتسائلين هزؤا والمعنى – ولله العلم – ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون عن النبأ العظيم إنه باطل أو إنه لا يكون.

وعـدة مـا جـاء فى القرآن الكريم من لفظ "كلا" ثلاثة وثلاثون موضعا تتضمنها خمس عشرة سورة[2] وليس فى النصف الأول من القرآن الكريم منها شئ قيل: وحكمة ذلك: ولله العلم – أن النصف الأخير نزل أكثره بمكة وأكثرها جبابرة

---

(1) هى عند سيبوية والخليل والمبرد والزجاج وأكثر البصريين أنها حرف معناه: الزجر و الردع ولا معنى لها عندهم إلا هذا ورأى الكسائى وأبو حاتم ومن وافقهما أن معنى الردع والزجر ليـس مستمرا فيها وزادوا معنى ثانيا يصح عليه أن يوقف دونها ويبتدأ بها. ثم اختلفوا فى تعييـن ذلك المعنى على ثلاثة أقوال أحدها: للكسائى ومتابعيه قالوا: تكون بمعنى حقا كقوله تعالى: "كلالئن لم ينته لنسفعا بالناصية" (سورة العلق/١٥) والثانى لأبى حاتم ومتابعيه قالوا : تكـون بمعنى "ألا" الاستفتاحية نحو قوله تعالى: "كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين" (سورة المطففيـن/٧) ولذا تكسر همزة "إن" بعدها. والثالث للنضر بن شميل والفراء ومن وافقهما قـالوا: تكون حرف جواب بمنزله أى ونعم وتكون قبل القسم نحو قوله تعالى: "وما هى إلا ذكرى للبشر كلا والقمر" (سورة المدثر/٣١و٣٢) وقيل: إنها حرف للرد و النفى كقولنا: كلا لـم يحضر زيد وركب ابن مالك بعض هذه المذاهب فجعلها مذهبا واحدا فقال: "كلا" حرف ردع وزجر وقد تؤول بـ"حقا" وتساوى "أى" معنى واستعمالا وقيل إن "كلا" بمعنى "سوف" وقـال ثعلب : إنها مركبة من كاف التشبيه و "لا" النافية وشددت لامها لتقوية المعنى ولدفع توهم بقاء معنى الكلمتين. (راجع: معانى الحروف للرمانى/١٢٢ ورصف المبانى فى شرح حروف المعانى للمالقى /١٢٢ ولسان العرب مادة "كلا" ٣٩٠٨/٥ و ٣٩٠٩ والجنى الدانى فى حروف المعانى للحسن بن قاسم المرادى/٥٧٧-٥٧٩ ومغنى اللبيب لإبن هشام ١٨٨/١ – ١٩٠ وبصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ٣٨١/٤ – ٣٨٣ والبرهان فى علوم القـرآن للزركشـى ٣١٣/٤ – ٣١٦ والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٦١/٢ – ٢٦٣ ومعترك الأقران ١٩٣/٢ – ١٩٥ والمعجم الوافى فى النحو العربى/٢٥١.

(2) سورة مريم /٧٩ و ٨٢ وسورة المؤمنون/١٠٠ وسورة الشعراء / ١٥ و ٦٢ وسورة سبأ/٢٧ وسورة المعارج/١٥و ٣٩ وسورة المدثر /١٦ و ٣٢ و ٥٣ و ٥٤ وسورة القيامة /١١ و ٢٠ و ٢٦ وسورة النبأ /٤ و ٥ وسورة عبس /١١ و ٢٣ وسورة الانفطار /٩ وسورة المطففين/٧ و ١٤ و ١٥ و ١٨ وسورة الفجر /١٧ و ٢١ وسورة العلق /٦ و ١٥ و ١٩ وسورة التكاثر / ٣ و ٤ و ٥ وسورة الهمزة /٤.

فتكررت هذه الكلمة على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم بخلاف النصف الأول وما نزل منه فى اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلهم وصغارهم.

وهـل يوقـف عـليها دون مـا قبلها أو على ما قبلها دونها؟ فيه اختلاف والصـحيح أنه يوقف عليها فى بعض المواضع مع وصل ما قبلها بها وفى بعض المواضـع يوقف على ما قبلها وذلك بحسب مواضعها من المعنى وهذا لايتبين إلا بتتبع مواضعها واحدا واحدا وهذا يطول ويخرجنا عن المقصود.

وبالتأمل فى هذا النظم الكريم نجد أن الله – عز وجل – قد قرر ذلك الردع والتهديد الشديد لهؤلاء الكافرين بالجملة الاستئنافية التى لا محل لها – والتى وقعت موقـع الجـواب عـن السـؤال ولذلك فصلت ولم تعطف لأن ذلك طريقة السؤال والجواب – والجملة هى قوله – عز وجل – "كلا سيعلمون" ومن المعلوم أن السين حرف للاستقبال وهى للمستقبل القريب أو البعيد المنزل منزلة القريب ليتقن تحققه ووقوعـه كما هنا وهى حرف يختص بالمضارع المثبت المنزل منزلة الجزء منه ولهـذا لا يعمل فيه وهى حرف يفيد تكرار الفعل وتوكيده وعدا أو وعيدا مع وجود قرينة لفظية أو معنوية وتستعمل غالبا فى الوعد وقد تستعمل فى الوعيد كما هنا.

ولمـا كـان الغـالب فى "كـلا" أن تعقب بكلام يبين ما أجملته من الردع والإبطـال فقـد جاء قوله تعالى: "سيعلمون" للزيادة فى إبطال كلامهم بتحقيق أنهم سـيوقنون بوقوعه ويعاقبون على إنكاره فهما علمان يحصلان لهم بعد الموت: علم بحـق وقـوع الـبعث وعلم فى العقاب عليه ولذلك حذف مفعول "سيعلمون" ليعم المعلومين فإنهم عند الموت يرون ما سيصيرون إليه فقد جاء فى الحديث الصحيح "إن الكافر يرى مقعدة فيقال له: هذا مقعدك حتى تبعث" وفى الحديث "القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار" ومن محاسن هذا الأسلوب فى الوعيد أن فيه إيها ما بأنهم سيعلمون جواب سؤالهم الذى أرادوا به الإحالة والتهكم وصوروه

فى صـــورة طلب الجواب فهذا الجواب من باب قول الناس: الجواب ما ترى لاما تسمع.[١]

وقوله تعالى: "ثم كلا سيعلمون" زيادة فى تأكيد هذا الردع والوعيد والتهديد وهـــو هـــنا مناسب – والله العلم – للوعيد المتكرر فى قوله – سبحانه – فى سورة المرسلات "ويل يومئذ للمكذبين"[٢] وكأنه قيل : سيعلمون عاقبة تكذيبهم – ولكن فى وقـــت لا يجـــدى فيه العلم – وأن ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق لا دافع له واقع لا ريب فيه. فـــ"ثم" حرف عطف وليست على أصلها للمهلة أو التراخى إذ لا مهـــلة هـــنا ولا تراخى بين الجملتين المعطوفة والمعطوفة عليها وإنما هى لترتيب الإخـــبار ولا تـــراخى بيـــن الإخـــبارين. وكأنى بها هنا تشارك فى تأكيد المعنى: أ– معنى الزجر الذى تؤديه "كلا". ب– معنى الوعيد والتهديد والتهويل الواضح فى الجمـــلة الـــتالية لهـــا وذلك من خلال هذا العطف وهذا التكرار – تكرار الحرف وتكرار الجملة الفعلية – بين الجملتين.

والى جـــانب هـــذا التأكيد فى الزجر والوعيد قد تشير "ثم" إلى أن الوعيد الـــثانى أشـــدوأنكى مـــن الوعيد الأول. وقال الشيخ زادة: "ثم" موضوعة للتراخى الـــزمانى وقـــد تستـــعمل فى التراخى الرتبى كما هنا تشبيها لتباعد الرّتبة بتباعد الزمان".[٣]

وقـــد حـــذف المفعول فى هاتين الجملتين إيجازا للعلم به وفى هذا الإجمال والحـــذف من المبالغة وفى هذا الإجمال والحذف من المبالغة والتهويل ما فيه حيث

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٣٠ و ١٢.
(٢) سورة المرسلات /١٥ و ١٩ و ٢٤ و ٢٨ و ٣٤ و ٣٧و ٤٠ و ٤٥و ٤٧و ٤٩.
(٣) الفتوحات الإلهية ٤٧١/٤.

تذهـــب النفس كل مذهب وتقدير المعنى – والله العلم – : سيعلمون ما يحل بهم من نكال لإنكارهم وجحودهم.

وذهـــب الـــبعض إلى أن ذلـــك ليس بتكرير لأن قوله – عز وجل – "كلا ســـيعلمون" للكفار وقوله – سبحانه – "ثم كلا سيعلمون" للمؤمنين أى سيعلم الكفار عاقـــبة تكذيـــبهم وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم وقيل: الأول عند النزع وهو ما يكون عند خروج الروح وزجر الملائكة وعلمه بما يشاهده بانكشاف الغطاء والثانى فى القيامـــة وهو زجر ملائكة العذاب ومشاهدة العقاب وحينئذ تكون "ثم" فى محلها لما بينهما من البعد الزمانى ولا تكرار فيه كما فى الوجه السابق. وقيل: الأول ردع عـــن الاخـــتلاف والـــثانى عن الكفر وقيل الأول فى الدنيا والثانى فى الآخرة أى سيعلمون ما يصل إليهم من العذاب فى الدنيا – كما جرى على كفار قريش يوم بدر – ثم كلا سيعلمون بما ينالهم فى الآخرة[1].

وفى درة التـــنزيل: "كـــلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون" للسائل أن يسأل عن تكـــرار ذلـــك وفائدتـــه والجواب أن يقال: إن الأول وعيد بما يرونه فى الدنيا عند فـــراقها من مقرهم والثانى وعيد بما يلقونه فى الآخرة من عذاب ربهم وإذا لم يرد بالـــثانى مـــا أريد الأول لم يكن تكرارا وقيل الأول توعد بالقيامة وهو لها والآخر توعـــد بما بعدها من النار وحرها"[2] والذى أميل إليه هو – والله العلم – أن قوله – عز وجل – "كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون" تلويح بالتهديد لهؤلاء المتسائلين هزؤا وأن تكرير الردع "كلا" وتكرير الوعيد "سيعلمون" ووجود حرف العطف "ثم" بينهما

---

(١) راجـــع : مفـــاتيح الغيب ١٣٤/١٦ و ١٣٥ وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦/٣٠ وحاشية الشهاب ٣٠٢/٨.

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل /٥١٦.

إيمـــاء إلى غاية التهديد ففيه إطناب[١] بالجملة لتأكيد الردع والإنذار والوعيد الأكيد والـــتهديد الشديد. ونظير ذلك – فى تأكيد الردع والإنذار – قوله – عز وجل – : "كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون". (سورة التكاثر/٣و٤) فقوله – تعالى – "كـــلا" ردع وزجـــر عـــن الإنكهمـــاك فى الدنيا والتلهى بها عن الآخرة من قبل المـــتكاثرين وقولـــه – ســـبحانه – "سوف تعلمون" "إنذار وتهديد بما ينتظرهم من العـــذاب بســـبب مـــاهم فيه من ضلال ثم أكد الزجر والإنذار بقوله "ثم كلا سوف تعلمون" لترتاع قلوب المتكاثرين ويأخذ من قلوبهم الخوف والرهبة كل مأخذ.

"**ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا ســـراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا. لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا**". (سورة النبأ/ ٦ –١٦).

لمـــا حكى الله – عز وجل – عن المشركين إنكار البعث والحشر وأراد – ولله العـــلم – إقامة الدليل على صحة البعث وأنه حقيقة واقعة عرض بعض الأدلة والبراهين التى تقوم شاهدة على قدرته – سبحانه – وعلى ما فى متناول هذه القدرة من التصريف فى عالم الإنسان حياة وموتا وبعثا... وقد كان من شأنهم – لو كان

---

(١) الإطـــناب فى اصـــطلاح البلاغيين هو: أداء المعنى المراد بعبارة زائدة عما يتعارفه أوساط الـــناس فى التعـــبير عـــنه عند أدائهم أصل هذا المعنى بشرط أن يكون الزائد عن متعارف الأوساط لفائدة. وقد تتبع البلاغيون صور الإطناب فى الموروث الأدبى للغة العربية فحصروا مـــنها أنواعا وضعوا لها مصطلحات وذكروا أغراضا بلاغية لكل نوع منها لتكون نماذج فى التتـــبع ومعـــرفة أغراض وأسرار الكلام. والتكرير صورة من صور الإطناب الشهيرة التى يكـــثر اســـتعمالها فى الكلام العالى لأسرار ودواع يحددها السياق. (راجع : بحوث فى علم المعانى/١٩٤ – ٢٠٥).

لهـــم عقـــول – أن يقفوا بين يدى هذا المعارض من قدرة الله – عز وجل – وأن يقرءوا فى صحفها ما يحدثهم عن جلال الله وقدرته – تعالى.

وبالـــتأمل فى هـــذا النظم الكريم نجد أن الله – عز وجل – قد ذكر أمورا محسوســـة مـــتفقا عليها ليجعل المنطلق من المتفق عليه إلى الأمر الغيبى المختلف عـــليه فيكـــون الشـــاهد عين الدليل على الغائب فلفتهم إلى ما هو واقع بين أيديهم وحولهم وفى ذوات أنفسهم وفى الكون من أمر عظيم يدل على ما وراءه فذكر من عجائب مخلوقاته وبديع ضيعة وعظيم قدرته ما يلى:

١- **قولـــه – عـــز وجل – "ألم نجعل الأرض مهادا" (سورة النبأ/٦)** حيث بدأ – ســـبحانه – بمـــا هو أهم وبما هو أسبق شئ إلى الذهن عند الخوض فى أمر البعث الذى هو إخراج أهل الحشر من الأرض.

فـــالأرض أصل نشأتهم ومجال حياتهم ومعاشهم. والهمزة فى قوله – تعالى – "ألم نجعـــل ...إلـــخ" للاســـتفهام الـــتقريرى المـــراد منه حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر ثبوته أو نفيه والمراد بالتقرير هنا – والله العلم – تقرير مـــا بعـــد النفى أى : جعلنا الأرض مهادا ... إلخ فحرف النفى لمجرد تأكيد معنى الـــتقرير، وكأن الله – عز وجل – استأمنهم على أن يسأل هذا السؤال ليجيبوا عليه وفى التعـــبير بقولـــه – ســـبحانه – "ألم نجعل الأرض مهادا" دون "أجعلنا الأرض مهـــادا" تـــلقين لهم بالجواب كما أن الاستفهام بالنفى أبعد ما يكون عن التهمة لأن الجواب عليه سوف يكون بأسلوب الإثبات فكأنه أمر متيقن.

وقيل : إن الهمزة للاستفهام الإنكارى التوبيخى إلا أن السياق يقتضى – والله العلم – أن تكون الهمزة للتقرير لأن الكلام مسوق لبيان قدرته – عز وجل – على الـــبعث وإيـــراد الدلائل عليه ببعض ما عاينوا من عجائب صنعه الدالة على كمال قدرته – سبحانه – وكأن هذه الصيغة يد قوية تهز الغافلين وتوجه أنظارهم وقلوبهم

إلى هـــذا الحشـــد من الخلائق والظواهر التى تشى بما وراءها من التدبير والتقدير والقـــدرة على الإنشاء والإعادة والحكمة التى لا تدع أمر الخلائق سدى بلا حساب ولا جزاء.

و "لـــم" حـــرف جـــزم ونفى وقلب وهو من علامات الفعل المضارع التى تختص بالدخول عليه فتنفيه وتجزمه وتقلب دلالته – من الحاضر إلى الماضى. و "تجعل" فعل مضارع مجزوم بـــ"لم" وعلامة جزمه السكون وحرك لالتقاء الساكنين وفاعله ضمير مستتر تقديره "نحن" (ضمير المعظم نفسه وهو الله عز وجل) وجاء التعـــبير بـــالفعل المضارع "تجعل" – ولله العلم – لقصد استحضار الصورة للفعل وليفيـــد استدعاء إعمال النظر فى خلق الأرض والجبال إذهى مرئيات لهم والأكثر أن يغفـــل الناظرون عن التأمل فى دقائقها لتعودهم بمشاهدتها من قبل سن التفكير فـــهى تحت أقدامهم لا يكادون ينظرون فيها ولم يفكروا فى صنعها والجبال يشغلهم عن التفكير فى صنعها شغلهم بتجشم صعودها والسير فى وعرها وحراسة سوائمهم مـــن أن تضـــل شعابها وصرف النظر إلى مسالك العدو عند الاعتلاء إلى مراقبها فأوثـــر الفعـــل المضـــارع مـــع ذكر المصنوعات الحرية بدقة التأمل واستخلاص الاســـتدلال ليكون إقرارهم مما قرروا به على بصيرة فلا يجدوا إلى الإنكار سبيلا. والتعبير بـــ"تجعل" دون "تخلق" لأن كون الأرض مهادا حالة من أحوالها عند خلقها أو بعده بخلاف فعل الخلق فإنه يتعدى إلى الذات غالبا أو إلى الوصف المقوم للذات نحـــو "الـــذى خلق الموت والحياة" (سورة الملك/٢)[١] و "الأرض" مفعول به أول للفعل "تجعل" منصوب و "مهادا" مفعول ثان منصوب أيضا وهذا حين يكون الجعل بمعنى "التصيير" أما إذا جعل بمعنى الخلق فإنه ينصب مفعولا واحدا هو "الأرض"

(١) تفسير التحرير والتنوير ٣٠/ ١٤ و ١٦.

وتكـــون "مهادا" حال مقدرة وكذا يقال فى قوله – عز وجل – "والجبال أوتادا" وما بعـــده – وهـــو الذى أميل إليه ويزكيه المعنى لأن الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع كالخلق خلا أنه مختص بالإنشاء التكوينى وفيه معنى التقدير والتسوية وهذا عام له كمـــا فى الآيـــة المـــباركة[١] و "المهاد" الموضع الذى يهيأ للصبى أو هو: الفراش الموطـــأ[٢] وهو مصدر بمعنى الممهود أى ألم نجعل لهم الأرض ممهودة فهذا من قبيل تسمية المفعول بالمصدر كقولنا : هذا ضرب الأمير أى مضروب الأمير أو أن الأرض وصـــفت بهـــذا المصدر لكما لها فى تلك الصفة حتى صارت كأنها الصفة نفســـها كما تقول: "زيد جود" وعلم "وفضل" ونحن نعنى أنه كامل فى جوده وعلمه وفضله أو أن الكلام من قبيل التشبيه المؤكد المجمل وهو المشهور بالتشبيه البليغ أو التشـــبيه على حد المبالغة كما يقول الإمام عبد القاهر الجرجانى – رحمه الله – ومعناه: الأرض للخلق كالمهد للصبى ففيه مبالغة من جهتين: الأولى: حمل المشبه بـــه عـــلى المشبه والإخبار عنه دون أداة "الأرض مهاد" فهذا يقتضى المبالغة فى تشـــبيه الأرض بالمهاد الذى يعد للطفل لينام عليه وكأنه هو ولذلك سمى مؤكدا من هـــذه الجهـــة. الثانية : أن هناك مبالغة أخرى فى حذف الوجه الذى يقتضى عموم المشابهة بين الأرض والمهاد كأنها تشبهه من جميع النواحى ولذلك سمى مجملا من هذه الناحية هذا إذا كان المهاد بمعنى الموضع الذى يهيأ للصبى أما إذا كان المهاد بمعـــنى الفـــراش الموطـــأ الـــذى يكون داخل البيت فإن النظم الكريم يخرج على الاســـتعارة بالكناية حيث شبهت الأرض بالبيت لأن البيت من شأنه أن يخطر ببال السامع من ذكر المهاد.

---

(١) الفتوحات الإلهية ٤٧١/٤.
(٢) المعجم الوسيط والمعجم العربى الأساسى مادة (مهد).

هــذا : وقولــه – عز وجل – "**ألم نجعل الأرض مهادا**" جملة استئنافية لا محل لها ولما كانت الجملة فى موقع الدليل فلم تعطف على ما قبلها.

٢– وقوله تعالى "**والجبال أوتادا**" **(سورة النبأ/٧)** معطوف على الجملة السابقة "ألم نجعل الأرض مهادا" بواو العطف والمعنى – ولله العلم – ثبتنا الأرض بالجبال كمـــا تثـــبت الخيام بشدها إلى الأوتاد وذلك حتى لا تميد الأرض بأهلها وحتى يـــتحقق كونهـــا مهادا بحق وفى الحديث: "خلق الله تعالى الأرض فجعلت تميد فوضع عليها الجبال فاستقرت ..."[١] وقال الأفوة:

ولا عمـــاد إذا لـــم تـــرس أوتـــاد[٢]　　والـــبيت لا ينـــبنى إلا له عمـــد

وفى هذا دليل على أن التساؤل الكائن بينهم عن أمر البعث.

وقـــد جاء النظم الكريم على طريقة التشبيه المؤكد المجمل (أو التشبيه على حد المبالغة أو التشبيه البليغ) الذى يقتضى المبالغة فى تشبيه الجبال بالأوتاد وكأنها هى كمـــا يقتضـــى عمـــوم المشـــابهة بين الجبال والأوتاد كأنها تشبهها من جميع الـــنواحى. فشـــبه الجبال بالأوتاد الملفوفة حولها لفائف الخيام لأن ذلك هو النظام الغـــالب فى استخدام الخيام عند العرب الموجه اليهم الخطاب إذ المعلوم أنهم كانوا يجوبـــون الصحراء طلبا للرزق ويحطون برحالهم من وقت لآخر فى بقاع مختلفة منها وينصبون الخيام المصنوعة من جلود الأنعام للاستظلال بها فى النهار وللمبيت فيهـــا بالـــليل فكانت جزءا هاما من المتاع الضرورى لهم فى رحلاتهم لذلك كانوا غالبا يحملونها ملفوفة على أوتادها لتكون معدة للاستعمال من وقت لآخر.[٣]

---

(١) راجع : تلخيص البيان فى مجازات القرآن /٣٤٧ ونظم الدرر ١٩٥/٢١ وروح المعانى٦/٣٠
(٢) تفسير البحر المحيط ٤١١/٨.
(٣) التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن حنفى أحمد /٤٠٤.

فالأوتـــاد تشـــد الخيمة من أن تقلعها الرياح أو تزلزلها والجبال تكسر تيار الكرة الهوائية المحيطة بالأرض فيعتدل وتكون حركة الأرض فى كرة الهواء غير ســـريعة وقـــد أشار القرآن الكريم إلى أهمية الجبال فى حفظ توازن الأرض فقال: "وألقى فى الأرض رواسى أن تميدبكم" (سورة النحل/١٥)

"غيـــر أن الحقيقة أكبر وأوسع مدى مما يحسها الإنسان البدائى لأول وهلة بـــالحس المجرد وكلما ارتقت معارف الإنسان وازدادت معرفته بطبيعة هذا الكون وأطواره كبرت الحقيقة فى نفسه وأدرك من ورائها بعضا من التقدير الإلهى العظيم والـــتدبير الدقيـــق الحكيـــم والتنسيق بين أفراد هذا الوجود وحاجاتهم وإعداد هذه الأرض لتـــلقى الحيـــاة الإنسانية وحضانتها وإعداد هذا الإنسان للملاءمة مع البيئة والـــتفاهم معهـــا"[١] وبالتأمل فى أى النظم الكريم نجد أن ذكر الجبال يكثر مع ذكر الأرض ولعل السر فى ذلك – والله العلم – أن غالب سكان الأرض وخاصة العرب لهم منافع جمة فى الجبال فمنها مسايل الأودية وقرارات المياه فى سفوحها ومراعى أنعـــامهم ومستعصـــمهم فى الخوف ومراقب الطرق المؤدية إلى ديارهم إذا طرقها العـــدو ومن هنا يمكن القول بأن جملة "والجبال أوتادا" إدماج[٢] معترض بين جملة

---

(١) فى ظلال القرآن ٦/٣٨٠٤.

(٢) الإدماج ضرب من إيجاز القصر له خصائصه وأسراره وصوره ويتحقق إذا كان للمتكلم أكثر مـــن معـــنى وغرض فى الكلام الواحد مع أن صريح التركيب وظاهر السياق لا يفيد سوى معـــنى واحد أو غرض واحد فقط وأما المعنى الآخر الداخل فى قصد المتكلم ففى طى الكلام ومدرج فيه وعلى أهل البصر بمتصرفات التراكيب استنباط تلك المعانى والأغراض الأخرى الـــتى أحكم المتكلم أمرها فجاء بها مدمجة. وليس الأمر فى باب الادماج مجرد جمع المتكلم بيـــن أكـــثر من معنى أو غرض فى الكلام الواحد فحسب وإنما الأمر مع هذا يتجاوز مجرد الجمع بين المعانى والأغراض إلى مرتبة أخرى من المزج الدقيق بين الأغراض وعلى نحو مـــن الإحكـــام بحيـــث يكـــون بناء الكلام مصورا فى حال ما أريد به معنى واحدا. (راجع الصـــناعتين /٤٤١ و ٤٤٢ والـــبديع فى نقد الشعر /٥٨ و ٥٩ والكشاف وحاشية ابن المنير عـــليه ٢/٣٤ وبديـــع القرآن /١٧٢ والفوائد المشوق إلى علوم القرآن/٢١٥ والاتقان ٢/٨٧ ومعترك الأقران ١/٢٨٧ ومن بديع الإيجاز الاكتفاء والإدماج /٨١ – ١٢١).

"ألــم نجعل الأرض مهادا" وجملة "وخلقناكم أزواجا" وفى هذه الآية الكريمة معجزة علمية فمما تحدث عنه الجيولوجيون فى عصرنا أن لكل جبل جذريا وتديا فى باطن الأرض يعــدل ضعفى ارتفاعه فوق الأرض فالتعبير بكلمة "أوتادا" عن الجبال فيه معجزة فى حد ذاته لأنه إخبار عن معنى ما عرف العالم دقائقه بل بعض دقائقه بما يتفق مع اللفظ القرآنى إلا قريبا.[١].

وبعــد أن أعد – سبحانه – مقومات الحياة لخلقه قبل أن يخلقهم حيث ذكر بمــا فى الظرف الذى هو فرشهم من الدلالة على تمام القدرة أتبعه التذكير بما فى المظروف وهو أنفسهم لتجتمع آيات الأنفس والآفاق فيتبين لهم أنه الحق فقال – عز وجل – :

٣- "**وخلقــناكم أزواجــا**" (ســورة النبأ/٨) الواو هنا عاطفة للجمل وقوله تعالى: "خلقناكم" جملة مكونة من فعل وفاعل ومفعول معطوفة على المضارع المنفى بـــ"لم" فى قوله – عز وجل – ألم نجعل ..." وداخل فى حكمه فإنه فى قوة: أما جعلــنا ...إلخ والمعطوف عليه وإن كان فعلا مضارعا إلا أن دخول "لم" عليه صيره فى معنى الماضى ولذلك حسن عطف "خلقناكم" على "ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا" والكل تقرير على شئ مضى أو على ما يقتضيه الإنكار الــتقريرى فإنه فى قوة أن يقال: "قد جعلنا ...إلخ" والتقرير هنا على أصله إذ المقــرر عليه هو وقوع الخلق فلذلك لم يقل: "ألم نخلقكم أزواجا" وفى قوله – عز وجل – "خلقناكم" التفات من الغيبة فى "سيعلمون" إلى الخطاب يفيد – ولله العلم – المبالغة فى الإلزام والتبكيت وعبر هنا بفعل الخلق دون الجعل لأنه يفيد

---

(١) الأساس فى التفسير ٦٣٤٥/١١.

تكون ذواتهم فهو أدق من الجعل وجئ بفعل المضى فى قوله تعالى "وخلقناكم أزواجا" وما بعده لأن مفاعيل فعل "خلقنا" وما عطف عليه ليست مشاهدة لهم.

وقولــه تعالى "أزواجا" حال منصوبة والمراد – والله العلم – الذكر والأنثى ليســكن كل من الصنفين إلى الآخر وينتظم أمر المعاشرة والمعاش ويتسنى التناسل ولا تــنقطع الحياة عن ظهر هذا الكوكب الأرضى كما قال – سبحانه – "**وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى**" (سورة النجم/٤٥) أو المراد كل زوجين وكل متقابلين من الطويــل والقصير والقبيح والحسن والأبيض والأسود وجميع المتقابلات والأضداد كما قال تعالى: **(ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)** (سورة الذاريات / ٤٩) وهــذا دليل واضح على كمال القدرة ونهاية الحكمة حتى يكون الابتلاء والاختبار فيــتقرب الفاضــل إلى الله بالشكر ويتعبد المفضول بالصبر وتعرف حقيقة كل شئ بضده: وبضدها تتميز الأشياء.

فالإنسان إنما يدرك قدر الشباب عند المشيب والصحة عند المرض والأمن عــند الفــزع والغــنى عند الفقر والشبع وقت الجوع وهذا أبلغ فى معرفة نعم الله والإحساس بعظيم الآلاء وجزيل فضله[١] – عز وجل – وقيل يجوز أن يكون المراد مــن الخلق أزواجا: الخلق من منيين فيكون خلقناكم أزواجا من قبيل مقابلة الجمع بالجمع وتوزيع الأفراد على الأفراد وهو خلاف الظاهر جدا ولا داعى إليه.[٢].

ثــم انــتقل – سبحانه – من الاستدلال بخلق الناس إلى الاستدلال بأحوالهم وخص منها الحالة التى هى أقوى أحوالهم المعروفة شبها بالموت الذى يعقبه البعث وهى حالــة متكررة لا يخلون من الشعور بما فيها من العبرة لأن تدبير نظام النوم

(١) راجع : مفاتيح الغيب ١٦/١٣٥ و ١٣٦.
(٢) روح المعانى ٣٠/٧.

وما يطرأ عليه من اليقظة أشبه حال بحال الموت وما يعقبه من البعث فقال – عز وجل :-

٤- "**وجعلنا نومكم سباتا" (سورة النبأ/٩)** النوم: ردع طبيعى فى الجسم يؤذن بأن الجسـم لـم يعـد صالحا لحركة الحياة فيعز لها قسرا والسبات: النوم وأصله الـراحة وهو اسم مصدر بمعنى السبت. والسبت فى أصل اللغة: القطع وقال ابن الأعرابى فى قوله تعالى: "سباتا" أى قطعا فيحتمل – على هذا – أن يكون المعـنى: وجعلـنا نومكم متقطعا لا دائما فإن النوم على قدر الحاجة هو أنفع الأمـور أما دوامه فهو من أضر الأشياء. فلما انقطاعه نعمة عظيمة فقد ذكره الله – عز وجل – من قبيل الإنعام.

ويحتمل أن الإنسان إذا تعب ثم نام فذلك النوم يزيل عنه التعب فسميت تلك الإزالـة سـبتا أو قطعا[١] وقال المبرد: "وجعلنا نومكم سباتا" أى جعلناه نوما خفيفا يمكـن دفعـه وقطعـه ولـم نجعلـه غَشْياً مستوليا عليكم فإن ذلك من قبيل العلل والأمراض.

ولقد وقعت هذه المعجزة بشكل واضح للمسلمين المجهودين فى غزوة بدر وفى غزوة أحد وامتن الله – عز وجل – عليهم بها وهو يقول: "إذ يغشيكم النعاس أمـة مـنه...." (سورة الأنفال/١١) "ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم..." (سورة آل عمران/١٥٤) كما وقعت للكثيرين فى حالات مشابهة[٢]

وعـلى هذا فالسبات مجاز مرسل علاقته اللازمية حيث عبر باللازم وهو النوم وأراد الملزوم وهو الراحة وقيل : إن السبات بمعنى الموت وعليه يكون النظم

---

(١) مختار الصحاح ولسان العرب مادة "سبت".
(٢) فى ظلال القرآن ٣٨٠٥/٦.

الكريم من باب التشبيه المؤكد المجمل (التشبيه البليغ) أى وجعلنا نومكم مثل الموت فى الراحة القائمة على عدم الإحساس والحركة وإنما كان التشبيه محتملا هنا لقوله تعـالى بعـد ذلك: "وجعلنا النهار معاشا" (سورة النبأ/١١) أى وقت معاش وحركة وأما فى سورة الفرقان فى قوله تعالى: "وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا" (سورة الفرقان/٤٧) فلم يكن محتملا لغير التشبيه بالموت لأن مقابلـته بالنشـور ترجح كونه تشبيها[١] وهناك وجوه أخرى ذكرها علماء التأويل لكنها محل نظر[٢].

ولقـد شبه الرسول – صلى الله عليه وسلم – الموت بالنوم واليقظة بالبعث والنشـور فكما أننا ننام ولا ندرى كيف نمنا ونستيقظ ولا ندرى كيف انقضت تلك الساعات الطوال فإننا كذلك سنموت ولا ندرى كيف متنا ونبعث وكأننا استيقظنا بعد غفوة طويلة فقال – صلى الله عليه وسلم – فى هذا التشبيه البليغ "والله إنكم لتموتن كمـا تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتسألن عما كنتم تعملون ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها لجنة أبدا أونار أبدا".

هـذا : والـواو فى قولـه تعالى: "وجعلنا" عاطفة للمفردات والجمل وقوله سبحانه "جعلنا" فعل وفاعل والذى أميل إليه أن يكون الجعل هنا أيضا بمعنى الخلق لابمعنى التصيير فالفعل ينصب مفعولا واحدا وأوثر فعل "جعلنا" لأن النوم كيفية يناسبها فعل الجعـل لا فعل الخلق المناسب للذوات كما تقدم فى قوله تعالى "ألم نجعل الأرض مهادا" (سورة النبأ/٦).

---

(١) خصـائص التشبيه فى القرآن الكريم /٣٠٢ وانظر الكشاف ٢٨٣/٣ و ٦٨٥/٤ والبيضاوى وحاشية الشهاب ٤٢٨/٦ و ٣٠٢/٨ و ٣٠٣.

(٢) راجع : مفاتيح الغيب ١٣٧/١٦ و ١٣٨ وتفسير القرطبى ٧٢٠٨/١٠.

وقولــه تعالى: "نومكم" مفعول به منصوب وضمير الجر المتصل لجماعة المخاطــبين مبنى فى محل جر مضاف إليه وهذه الإضافة لزيادة التنبيه للاستدلال أى أن دليل البعث قائم بَيِّن فى النوم الذى هو من أحوالكم وليس التقييد فى الإضافة لإخراج نوم غير الإنسان لأن نوم الحيوان كله سبات.

وقولــه تعالى: "سباتا" حال منصوبة وهو حال من المفعول به والعامل فيه الفعل فى "جعلنا" وإنما أوثر لفظ "سبات" لما فيه – ولله العلم – من الإشعار بالقطع عــن العمل ليقابله قوله – عز وجل – بعد ذلك "وجعلنا النهار معاشا" (سورة النبأ/ ١١) وجملة "جعلنا نومكم سباتا" لا محل لها معطوفة على جملة "خلقناكم أزواجا".

ولمــا كــان النائم معطل الحواس فإنه يكون محتاجا لساتر عما يضره فهو أحوج ما يكون للدثار وضرب خيام الأستار ولذا قال سبحانه:

٥- "**وجعلــنا الــليل لباســا**" (**سورة النبأ/ ١٠**) اللباس : الشئ الذى يلبسه الإنسان ويــتغطى بــه[1] ولما كان الليل يغشى الناس بظلمته فيغطيهم جعل لباسا لهم وعــلى هذا فالنظم الكريم من قبيل التشبيه المؤكد المجمل (التشبيه البليغ) حيث شبه الليل الذى يقع فيه النوم غالبا باللباس الذى يغطى الجسم ويستره فى الفائدة المــتحققة فى كل فكما أن اللباس يقى الجسم من الحر والبرد ويستر العورات عن النظر ويزيد فى جمال الإنسان وتكامل قوته فكذلك الليل يستر الإنسان عن العيون ويخفى مالا يحب الاطلاع عليه من كثير من الأمور وبسبب ما يحصل فيــه مــن الــنوم يزيد فى جمال الإنسان فى طراوة أعضائه وفى تكامل قواه الحسية والعقلية ويبعده عن الأعمال الشاقة المجهدة.

---

(١) مختار الصحاح ولسان العب مادة "لبس".

وفى ذلــك امتـــنان عـــليهم بهذا النظام الدقيق الذى فيه اللطف بهم وراحة حيــاتهم ولو قدروه – عز وجل – حق قدره لشكروا وما أشركوا. وقد عد المتنبى مــن نعم الليل البيات على الأعداء والفوز بزيارة المحبوب واللقاء مكذبا ما اشتهر مــن مذهب المانوية[1] من أن الخير منسوب إلى النور والشر إلى الظلمة بالمعنى المعروف فقال:

تخـــبر أن المانويـــة تكـــذب   وكـــم لظـــلام الـــليل عـــندى من يد
وزارك فيـــه ذو الـــدلال المحـــبب   وقـــاك ردى الأعـــداء تســـرى إليهم

والواو فى قوله تعالى "وجعلنا" عاطفة للمفردات والجمل وقوله – عز وجل – "جعلـــنا" فعل وفاعل و "الليل" مفعول به منصوب و "لباسا" حال من المفعول به "الـــليل" والعـــامل فيه الفعل "جعل" وهذا على اعتبار الفعل "جعل" بمعنى "خلق" لا بمعنى صير كما يقتضيه المعنى فالليل لم يكن موجودا ثم صيره الله – عز وجل – لباسا بل خلقه – سبحانه – هكذا على هذه الحال.

ثم يشير – عز وجل – إلى أنه كما جعل النوم فى الليل موتا أصفرا وقطعا للحياة جعل النهار يقظة وحياة وحركة فقال:

٦- **"وجعلـــنا الـــنهار معاشـــا"** (ســـورة النبأ/١١) أى وجعلنا النهار وقتا للمعاش تتصرفون فيه فى حوائجكم ومكاسبكم. ولم يثبت مجئ هذا اللفظ اسم زمان فى الـــلغة – فـــ"المعاش" مصدر ميمى بمعنى المعيشة وهى الحياة وقع هنا ظرفا

---

(١) المانويـــة نسبة إلى مانى مؤسس هذا المذهب وهو فارسى وقد أسس مذهبه قبل الإسلام على القـــول بأنـــنا نجد فى العالم خيرا كثيرا وشرا كثيرا والواحد لا يكون خيرا شريرا فلكل من الخير والشر فاعل مستقل ففاعل الخير هو النور وفاعل الشر هو الظلمة واعتقد أنهما جسمان قديمان حساسان سميعان بصيران وكل ذلك ظاهر البطلان (إعراب القرآن وبيانه ١٠/٣٥٢و ٣٥٣).

كمــا تقول: "آتيك طلوع الفجر"[١] أى وجعلنا النهار معيشة لكم والإخبار عنه بأنه معيشة مجاز علاقته السببية لأن النهار سبب للعمل الذى هو سبب لحصول المعيشـــة وذلك يقابل جعل الليل سباتا بمعنى الانقطاع عن العمل. أو المعاش مصدر عاش إذا حيبى أى وجعلنا النهار حياة لكم وعليه فقد شبهت اليقظة فيه بالحياة.

و"جعــل" – كما يقتضيه المعنى – بمعنى "خلق" فالنهار لم يكن موجودا ثم صيره الله – عز وجل – معاشا بل خلقه على هذه الحال وعلى هذا فـ"جعلنا" فعل وفاعل و "النهار" مفعول به و "معاشا" حال من المفعول به "النهار" والجملة لا محل لها معطوفة على قوله – عز وجل – "جعلنا الليل لباسا" وبالتأمل فى قوله – سبحانه – "**وجعلــنا الــليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا**" نجد أن هناك مقابلة مصرحة بين "الــليل" و "الــنهار" وبين الراحة والعمل كما توجد مقابلة معنوية بين قوله "وجعلنا نومكــم ســباتا" وبيــن قوله "وجعلنا النهار معاشا" من حيث إن النهار وقت اليقظة والمعــاش فى مقابلة السبات لأنه قطع حركة الحى كما نجد فى النظم اكتفاء[٢] دلت عليه المقابلة فقد أشعر ذكر النهار بعد ذكر كل من النوم والليل بملاحظة أن النهار ابتداء وقت اليقظة التى هى ضد النوم فصارت مقابلتهما بالنهار فى تقدير: وجعلنا النهار واليقظة فيه معاشا.

وهــذا يؤكــد أن الله – عز وجل – لما ذكر خلقهم أزواجا قد أستوفى فى أحوالهم مقترنين ومفترقين فكان من تدبيره – عز وجل – للبشر أن جعل النوم

---

(١) راجع : حاشية الشهاب ٣٠٣/٨ وروح المعانى ٣٠/ ٧ و ٨.
(٢) الاكــتفاء صورة من صور الإيجاز بالحذف وهو: أن يقتضى المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتــباط فيكــتفى بأحدهمــا عــن الأخر (راجع: الإيضاح/١٠٦ ومن بديع الإيجاز الاكتفاء والإدماج ١١-٧٨).

سباتا يدركهم فيقطعهم عن الإدراك والنشاط ويجعلهم فى حالة لا هى موت ولا هى حيـــاة فهو سر من أسرار تكوين الحى لا يعلمه إلا من خلق هذا الحى وأودعه ذلك السر وجعل حياته متوقفة عليه وتوجيه النظر إلى هذه النعمة الإلهية على هذا النحو القــرآنى ينبه القلب إلى خصائص ذاته والى اليد التى أودعتها كيانة ويلمسه لمسة تـــثير الـــتأمل والتدبر كما كان من تدبير الله – عز وجل – أن جعل حركة الكون موافقـــة لحـــركة الأحياء فكما أودع الإنسان سر النوم والسبات بعد العمل والنشاط فكذلـــك أودع الكـــون ظاهـــرة الليل ليكون لباسا ساترا يتم فيه السبات والأنزواء وظاهـــرة النهار ليكون معاشا تتم فيه الحركة والنشاط وبهذا توافق خلق الله – عز وجل – وتناسق وكان هذا العالم بيئة مناسبة للأحياء.

فسبحان الله الذى جعل النوم سباتا وجعل الليل سكنا ولباسا وجعل النهار نشوار وله الحمد فى السماوات والأرض وهو بكل شئ عليم.

هذا وبمعاودة النظر نجد أن النظم الكريم "وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشـــا" من قبيل ما عرف بـــ"الإحتباك"[1] حيث ذكر اللباس أولا ليكون دليلا على حذف ضده ثانيا وهو الظهور وذكر المعاش ثانيا ليكون دليلا على حذف ضده أولا وهـــو عدم اكتساب الرزق فى الليل ثم لفت – سبحانه – الأنظار إلى مظاهر قدرته فى خلق العوالم العلوية فقال:

---

(1) مـــن ألطف أنواع الحذف وأبدعها وهو: أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى ومن الـــثانى مـــا أثبت نظيره فى الأول كقوله تعالى: "وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء" (سورة النمل/١٢) فالتقدير – والله العلم – تدخل غير بيضاء وأخرجها تخرج بيضاء فحذف من الأول "تدخل غير بيضاء" ومن الثانى "وأخرجها" وقال الزركشى الاحتباك هو: أن يجتمع فى الكلام متقابلان فيحذف من كل منهما مقابلة لدلالة الآخر عليه كقوله تعالى: "أم يقولون افتراه قل إن افتريـــته فعـــلى إجرامى وأنا برئ مما تجرمون" (سورة هود/٣٥) فالتقدير – والله العلم – إن افتريته فعلى إجرامى وأنتم برآء منه وعليكم إجرامكم وأنا برئ مما تجرمون.

٧- **"وبنيـــنا فوقكم سبعا شدادا"** (سورة النبأ/١٢) البناء: مصدر "بنى" وهو: جعل الجـــاعل أو صنع الصانع بيتا أو قصرا من حجارة وطين أو من أثواب أو من أدم[١] على وجه الأرض. فالبناء يستلزم الإعلاء على الأرض. و "بنينا" هنا – والله العـــلم – بمعنى "خلقنا" أى خلقنا ما هو عال فوق الناس لأن تكوينه عاليا يشـــبه البناء وعدل عن خلقنا لأنه أريد – ولله العلم – تشبيه السماوات بالقباب المبـــنية وعـــلى هذا يكون النظم الكريم – من قبيل الاستعارة التبعية فى الفعل حيث استعار فعل "بنينا" لمعنى "خلقنا" وقوله تعالى "فوقكم" إيماء إلى وجه الشبه فى إطـــلاق فعـــل "بنينا" وليس ذلك تجريدا[٢] للاستعارة لأن الفوقية لا تختص بالمبـــنيات مـــع ما فيه من تنبيه النفوس للاعتبار والنظر فى تلك السبع الشداد وفى التعبير بقوله – تعالى – "بنينا" إشارة إلى أنه وإن كان سقفا لكنه فى البعد عن الانحلال والآفة كالبناء ولا يأباه جعلها سقفا فى آية سورة الأنبياء". "وجعلنا السماء سقفا[٣] محفوظا وهم عن آياتها معرضون" (سورة الأنبياء/٣٢) لأنه لما كـــانت الســـماوات مـــرفوعه بغيـــر عمد كما قال – تعالى – "الله الذى رفع الســـماوات بغيـــر عند ترونها..." (سورة الرعد/٢) أطلق السقف عليها على طـــريقة التشـــبيه المضـــمر الأداة أى جعلها كالسقف القائم على الجدران فى الإرتفاع والتغطية لما تحتها.

وتقديـــم الظرف "فوق" على المفعول به "سبعا" لمراعاة الفواصل وللتشويق إليه لأن تأخير ما حقه التقديم يجعل النفس مترتبة ومتشوقة له فإذا ورد عليها تمكن

---

(١) أدمة: طبقات الجلد التى تلى البشرة من الداخل.
(٢) التجريد فى الاستعارة : ذكر ما يلائم المستعار له (المشبه).
(٣) حقيقـــة السقف أنه غطاء البيت الموضوع على جدرانه فلا يقال لغطاء الخيمة سقف والسقيفة كل مكام له سقف وسقف الحجرة أعلاها المقابل لأرضها (من عطاء نظم القرآن/١٢٤).

عــندها فضل تمكن وفى قوله تعالى "فوقكم" دلالة على الإحاطة فهى عامة لجميع جهــة الفوق. والمفعول به هنا "سبعا" هو فى أصله نعت قام مقام منعوتة المحذوف إيجــازا أى ســماوات سبعا فهو من ذكر الصفة وحذف الموصوف للعلم به كقوله تعالى "... حملناكم فى الجارية" (سورة الحاقة/١١) ولذلك جاء الوصف باسم العدد المؤنث إذ التقدير سبع سماوات.

والسماوات السبع قيل إنها طبقات علوية يعلمها الله – عز وجل – وقد اقتنع الناس منذ القدم بأنها سبع سماوات وقيل إنها الكواكب السبعة المشهورة بين الناس يؤمــئذ وهى: زحــل والمشترى والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر وهذا ترتيبها بحسب إرتفاع بعضها فوق بعض بما دل عليه خسوف بعضها ببعض حين يحــول بينه وبين ضوء الشمس التى تكتسب بقية الكواكب النور من شعاع الشمس وقيــل: إنهــا الطرائق السبع التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى قوله: "ولقد خلقنا فوقكــم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين" (سورة المؤمنون/١٧) وهى أطباق السموات السبع كما يقول سبحانه "الذى خلق سبع سماوات طباقا" (سورة الملك/٣) وحكم صاحب هذا القول على الرأى القائل بأنها الكواكب السبعة – بأنه غير صحيح لأن الكواكب ليست سبعة وإنما الذى عرف منها إلى الآن تسع وهناك كواكب كثيرة لم تكتشف بعد وقد تبلغ المئات عدا.[١]

والــذى أميــل إليــه هو – والله العلم – أن المراد بها الكواكب السبعة لأن العــبرة بهــا أظهر لأن المخاطبين لا يرون السماوات السبع ويرون هذه السيارات ويعهدونهــا دون غيــرها مــن السيارات التى اكتشفها علماء الفلك من بعد وهى "ســتورن" و "نبتون" و "أورانوس" وهى فى علم الله – تعالى – لا محالة لقوله عز

(١) التفسير القرآنى للقرآن – الكتاب الخامس عشر/ ١٤١٧.

وجــل "ألا يعــلم من خلق وهو اللطيف الخبير" (سورة الملك/١٤) وأن الله تعالى لايقول إلا حقا وصدقا ويقرب للناس المعانى بقدر أفهامهم رحمة بهم.

فأمـــا الأرض فقــد عــدت أخيــرا فى الكواكب السيارة وحذف القمر من الكواكب لتبين أن حركته تابعة لحركة الأرض إلا أن هذا لا دخل فى الاستدلال لأن الاستدلال وقع بما هو معلوم مسلم يومئذ والكل من صنع الله عز وجل.[١] و "شداد" جمع شديدة وهى الموصوفة بالشدة والقوة والمعنى – ولله العلم – أنها متينة الخلق قويـــة الأجـــرام لا يختل أمرها ولا تنقص على مر الأزمان وكر العصور. وجملة "وبنيـــنا فوقكـــم سبعا شدادا" لا محل لها من الإعراب معطوفة على الجملة السابقة "وجعلنا النهار معاشا" وما تقدمها من جمل على نمطها فى تعداد هذه النعم الكبرى. وهناك وجوه أخرى فى المعطوف عليه لكنها محل نظر ومردود عليها[٢] .

٨- "**وجعلـــنا ســـراجا وهاجـــا**" (ســـورة النبأ/١٣) حقيقة السراج: المصباح الذى يستضاء به وهو إناء صغير يوضع فيه الفتيلة والزيت يوقد للإضاءة. والوهاج: أصـــله الشديد الوهج وهو: الاتقاد يقال: وهجت النار إذا اضطرمت اضطراما شـــديدا ويطلق الوهاج على المتلألئ المضئ وهو المراد هنا لأن وصف وهاج أجرى على سراج أى سراجا شديد الإضاءة[٣]..ولا يقال : سراج ملتهب وقال الـــراغب: "الوهـــج حصـــول الضوء والحر من النار والوهجان كذلك وقوله" وجعلـــنا سراجا وهاجا" أى مضيئا"[٤] وفى الأساس عد قولهم: سراج وهاج فى قسم الحقيقة وعليه جرى قوله فى الكشاف "متلألئا وقادا يعنى الشمس وتوهجت

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢٣ وأنظر روح المعانى ٣٠/٩ و ١٠.
(٢) راجع : روح المعانى ٣٠/ ٨ و ٩.
(٣) المعجم العربى الأساسى مادتى: سرج ووهج.
(٤) المفردات مادة وهج.

النار إذا تلمظت فتوهجت بضوئها وحرها"[١] يعنى جمعت بين التلألؤ بضوئها والـــتوقد بحرها وعلى هذا يكون التعبير فى النظم الكريم عن الشمس بالسراج الوهاج من باب التشبيه البليغ لتقريب صفة المشبه (الشمس) إلى الأذهان وزاد ذلـــك الـــتقريب بوصـــف الســـراج بالوهاج أى الشديد السنا ففى السراج توقد وحـــرارة وضـــوء وهو ما يتوافر فى الشمس فاختيار كلمة "سراج" دقيق كل الدقة.

وكـــأن التعبير عن الشمس بالسراج من روادف التعبير عن خلق السماوات بالبـــناء ولذلـــك أوثـــر فعل "جعلنا" دون "خلقنا" لأن كونها سراجا وهاجا حالة من أحوالها وإنما يعلق فعل الخلق بالذوات فمع العبرة بخلقها عبرة فى كونها على تلك الصـــفة ومنه على الناس باستفادتهم من نورها فوائد جمة "وكأن الله – عز وجل – قـــد جعل فى هذا الكوكب سر الحياة فالحرارة والضوء يطردان الأمراض وينعشان كـــل حى ولا أدل عـــلى هذا مما نشاهد من فتك الأمراض بمن لمنأى عن ضوئها وحـــرارتها والجـــراثيم لا تـــتولد الا حيـــث يحتجب عنهما السكان ويبتعدان عن المكان"[٢]

والمعـــنى : وجعلـــنا لكم سراجا وهاجا أو وجعلنا فى السبع الشداد سراجا وهاجـــا عـــلى نحو قوله تعالى "ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا" (سورة نوح / ١٥و١٦) وقوله "تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا" (سورة الفرقان/٦١) سواء قدرت الضمير فى قوله تعالى "فيها" عائدا إلى "السماء" أو إلى "البروج" لأن البروج هى: بروج السماء.

---

(١) تفسير الكشاف ٤/٦٨٦.
(٢) تفسر المراغى ٣٠/٩.

وقولـه – سبحانه – "سراجا" اسم جنس فقد يراد به الواحد من ذلك الجنس فيحتمل أن يراد به الشمس أو القمر[١]

هذا : والفعل "جعل" هنا بمعنى "خلق" فينصب مفعولا واحدا هو قوله تعالى "سراجا" وقولـه عز وجل "وهاجا" يعرب نعتا منصوبا وجوز بعضهم أن يكون قوله تعالى "سـراجا وهاجـا" مفعولين على أنه هنا مما يتعدى إلى مفعولين ولكن هذا مخالف لـلظاهر للتـنكير فيهمـا وإن قيـل السـراج: الشمس وهى لانحصارها فى فرد كالمعـرفة[٢] وجملة "وجعلنا سراجا وهاجا" لا محل لها من الإعراب معطوفة على جمـلة "وبنينا فوقكم سبعا شدادا". ثم استدل – سبحانه – بحالة أخرى من الأحوال الـتى أودعهـا فى نظام الموجودات وهى حالة إنزال ماء المطر من السحب على الأرض فتنـبت الأرض به سنابل وشجرا وكلأ وتلك كلها فيها حياة قريبة من حياة الإنسان والحيوان وهى حياة النماء فيكون ذلك دليلا للناس على تصور حالة البعث بعد الموت بدليل من التقريب الدال على إمكانه حتى تضمحل من نفوس المكابرين شبه إحالة البعث فقال – عز وجل –:

٩- **"وأنزلـنا مـن المعصـرات ماء ثجاجا. لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا"** (سورة النبأ ١٤و١٥و١٦) المعصرات: وحيدة الصيغة فى القرآن الكريم وجاء مـن مادتهـا: العصر بمعنى الزمن فى آية (سورة العصر/١) والعصر بمعناه اللغوى فى عصر الخمر فى قوله تعالى: "...إنى أرانى أعصر خمرا.." (سورة يوسف/٣٦) وفى قوله– عز وجل – "ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون" (سورة يوسف/٤٩) والإعصار فى آية البقرة "فأصابها إعصار

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٣٠.
(٢) روح المعانى ٩/٣٠.

فيـــه نار فاحترقت..." (سورة البقرة/٢٦٦) فالعصر فى كل صيغة واستعماله يرجع إلى أصل دلالته على الضغط لاستخلاص العصارة.[١]

وأمـــا "المعصـــرات" فى هذا النظم الكريم فقيل: إنها السحائب التى تحمل مطرا واحدتها معصرة[٢] اسم فاعل من أعصرت السحابة إذا آن لها أن تعصر أى تنزل إنزالا شبيها بالعصر فهمزة أعصر تفيد معنى الحينونة وهو استعمال موجود وتســمى همـــزة التهيئة كما فى قولهم: أجز الزرع إذا جان له أن يجز وأحصد إذا حان وقت حصاده.[٣]

ويظهـــر من كلام الزمخشرى – رحمه الله – أن همزة الحينونة تفيد معنى التهيؤ لقبول الفعل وتفيد معنى التهيؤ لإصدار الفعل فإنه ذكر: أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض[٤] وذكر ابن قتيبة فى أدب الكاتب: "أركب المهر" إذا حان أن يركب و "أحصـــد الـــزرع" حان أن يحصد و "أقطف الكرم" حان أن يقطف وكذلك يقال: "أقطـــف القوم" حان أن يقطفوا كرومهم.... و "أنتجت الخيل" حان نتاجها"[٥] وعلى هـــذا ففى النظم الكريم تشبيه حيث شبه السحابة التى حان وقت إمطارها بالجارية التى قددنا حيضها.

وقيـــل: إن "المعصـــرات" هى: "الرياح" التى تثير السحاب كما فى قوله – تعـــالى– "الله الـــذى يرســـل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء..." (سورة الروم/٤٨). والعرب تقول: إن الله تعالى إذا جعل السحب ركاما جاء بالريح

---

(١) الإعجاز البيانى للقرآن /٤١٦.
(٢) المعصر : الفتاة التى بلغت شبابها (المعجم الوسيط مادة عصر).
(٣) راجع : حاشية الشهاب ٣٠٣/٨ والتحرير والتنوير ٢٥/٣٠.
(٤) تفسير الكشاف ٦٨٦/٤.
(٥) أدب الكاتب /٢٩٢.

عصر بعضه بعضا فيخرج الودق منه ومن ذلك قوله تعالى "وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا" ومنه قوله حسان:

بــــزجاجة أرخاهمـــــا للمفصــــــل   كلــتا همـــا حــلب العصـــير فعاطنى

أراد حســـان الخمر والماء الذى مزجت به أى هذه من عصير العنب وهذه من عصير السحاب[١] وعلى هذا فالتعبير بالمعصرات عن الرياح من قبيل المجاز المرســـل الـــذى علاقته السببية حيث جعل إنزال المطر من الرياح لأنها سبب فيه وبيان ذلك أن المطر ينزل من السحاب والسحاب تثيره الرياح ولذا صح القول بأن هذا المطر من تلك الرياح.

وقيـــل: إن "المعصرات" هى الرياح ذوات الأعاصير وهى ريح شديدة تثير سحابا ذا رعدو وبرق وعلى هذا ففى النظم الكريم مجاز عقلى علاقتة إسناد الفعل إلى الجـــنس كلـــه (الرياح) وهو فى الحقيقة مسند إلى بعضه أو واحد منه (الريح الشديدة) من باب : بنوفلان قتلوا قتيلا" وإسناد الفعل إلى الجميع وهو للبعض ينبئ بأنـــه قد تم بعلمهم وبرضاهم ولكن هذا القول لا يؤنس إليه سياق الآية الكريمة فى المـــن بإخـــراج الحـــب والنبات وجنات ألفافا بالمعصرات مع الاستعمال القرآنى لإعصار فيه نار أصاب جفة من نخيل وأعناب فاحترقت كما لا يعين عليه مألوف اســـتعمال العربية للإعصار: الريح العاتية، وللمعصرات: السحب الممطرة وهناك وجـــوه أخـــرى فى تفســـير "المعصرات" مردود عليها[٢] و "الماء الثجاج" الشديد الانصباب فـــ"ثجاج" صيغة مبالغة على وزن "فعال" من الثج وهو : الصب فيقال: ثـــج الماء إذا أنصب بقوة وقد يسند الثج إلى السحاب فيقال: ثج السحاب يثج (بضم

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢٦.
(٢) روح المعانى ٣٠/١٠.

الــثاء) إذا صب الماء. و"ثج" ورد لازما ومتعديا واختير جعل ما فى النظم الكريم من اللازم لأنه – والله العلم – الأكثر فى الاستعمال والكثرة من صيغة المبالغة.

وجعلــه الزجاج من المتعدى فيقال: ثجه أى صبه فكأنه لكثرته يصب نفسه صــبا وفى الحديث: أفضل الحج العج والثج أى رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهــدى والمراد: أفضل أعمال الحج التلبية والنحر[١] وعلى كل فالمراد – والله العلم – تتابع القطر حتى يكثر الماء فيعظم النفع به.

ولا يــأبى الكــثرة كون الماء من المعصرات وظاهره أنه بالعصر وهو لا يحصــل منه إلا القليل لأن ذلك غير مسلم ولو سلم فالقلة نسبية ووصف الماء هنا بالثجاج للامتنان.

هذا : وجملة "وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا" لا محل لها من الإعراب معطوفة على الجملة السابقة "وجعلنا سراجا وهاجا".

ثم يبين المولى – عز وجل – الحكمة فى إنزال المطر من السحاب فيقول: "لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا (سورة النبأ/١٥ و ١٦). فاللام حرف للتعليل و "تخــرج" فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره "نحن" على سبيل التعظيم فهو ضمير المعظم نفسه وهو الله عز وجل.

وعبر هنا بالفعل "نخرج" وعبر فى "سورة ق" بــ"أنبتنا" حيث قال تعالى: "ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد" (سورة ق/٩) لأن المقصــود الأول – والله العلم – فى "سورة النبأ" هو: الإيماء إلى تصوير كيفية بعــث الناس من الأرض وأما فى "سورة ق" فقد كان المقصد الأول – والله العلم – هــو الامتنان ثم أتبع بالاستدلال به على البعث بقوله: "رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج" (سورة ق/١١) ومن المعلوم أن البعث خروج من الأرض كما

---

(١) المصدر السابق/١١ والبيضاوى وحاشية الشهاب ٣٠٤/٨.

قال سبحانه "منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها تحرجكم تارة أخرى" (سورة طه/٥٥)

و"الحـــب" اســـم جمـــع واحدتـــه "حبة" والمراد به هنا – والله العلم – ما يقتات به.

و "النـــبات" أصله اسم مصدر نبت الزرع قال تعالى "والله أنبتكم من الأرض نباتا" (ســـورة نـــوح/١٧) وأطـــلق النبات على النابت من إطلاق المصدر على الفاعل للمبالغة ثم شاع استعماله فنسيت المبالغة.

والمـــراد به هنا – والله العلم – : النبات الذى لا يؤكل حبه بل الذى ينتفع بذاته وهو ما تأكله الأنعام والدواب كالتبن والحشيش.

و"الجـــنات" جمع "جنة" وهى: كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض وقـــد جاء التعبير عن هذه البساتين بجمع القلة "جنات" لأن فى الأرض من البساتين ما يفوت الحصر وفى هذا تحقير لما هو مشاهد لهم بالنسبة إلى باهر العظمة ونافذ الكلمة سبحانه.

و"ألفافا" قيل إنها : جمع "لف" بكسر اللام بوزن جذع مثل كن وأكنان وسر وأســـرار[١] أى كـــل جنة منها لف (بكسر اللام) وقيل إنها جمع "لفيف" على وزن "فعيـــل" نحو "شريف وأشراف"[٢] وقيل إنها جمع الجمع (لفاء ولف ثم ألفاف) وقيل فيه غير ذلك[٣].

ولكن الذى أميل إليه هو أنها اسم جمع لا واحد له من لفظة مثل: الأوزاع[٤] والأخيـــاف[٥] أى كل جنة متقاربة الأشجار والأغصان فى كل شجرة متقاربة ملتفة ببعضها.

---

(١) إرشاد العقل السليم ٨١٣/٥ والفتوحات الإلهية ٤٧٢/٤.
(٢) مفاتيح الغيب ١٤٢/١٦.
(٣) راجع : تفسير الكشاف ٦٨٧/٤ وتفسير القرطبى ٧٢٠٩/١٠ و ٧٢١٠ وتفسير البحر المحيط ٤١٢/٨.
(٤) الأوزاع : الجماعات المتفرقة.
(٥) الجماعات المختلطة.

وجاء التعبير بقوله تعالى "جنات" للإيماء إلى إتمام المنة لأنهم كانوا يحبون الجنات والحدائق لما فيها من التنعيم بالظلال والثمار والمياه وجمال المنظر ولذلك أتـبعت بوصـف "ألفافـا" لأنه يزيدها حسنا ووصف الجنات بـ"ألفافا" مبنى على المجـاز العقلى الذى علاقته المكانية لأن الالتفاف فى أشجار الجنات لا فى الجنات ولكن لما كانت الأشجار لا يلتف بعضها على بعض فى الغالب إلا إذا جمعتها جنة أسند الفافا إلى جنات بطريق الوصف ولعله من مبتكرات القرآن الكريم.

وبالـتأمل فى هذا النظم الكريم نجد الدقة فى التعبير التى لايمكن يقولها إلا خـالق حيث حصر ما ينبت فى الأرض فى هذه الأنواع الثلاثة ثم قدم – سبحانه – "الحـب" مع تأخره عن النبات فى الإخراج لأنه هو الأصل فى الغذاء ولشرفه لأن غالـبه غذاء الانسان وثنى بـ"النبات" لإحتياج سائر الحيوانات إليه وأخر "الجنات" فى الذكـر لأن الحاجة إلى التلذذ والتفكة مما يستغنى عنها الكثير من الناس. وبهذا الاسـتدلال والامتنان ختمت الأدلة التى أقيمت لهؤلاء المنكرين للبعث وكأن الله – سـبحانه – يقول لهم: قد فعلنا لكم أو ألم نفعل لكم هذه الأفعال الآفاقية الدالة بفنون الـدلالات عـلى حقيقـة الـبعث الموجبة للإيمان به فما لكم تخوضون فيه إنكارا وتسألون عنه استهزاء.[١]

هـذا : وتـوالى هذه الحقائق والمشاهد على هذا النحو من انبساط الأرض وتمهيدهـا لتصـلح لسـير الناس والأنعام وسموق الجبال صاعدة فى الجو وتثبيتا لـلأرض وتـنوع الآدميين إلى ذكور وإناث وجعل النوم راحة للإنسان من عناء الأعمال التى يزاولها عامة نهاره وجعل الليل لباسا ساترا للخلق وجعل النهار وقتا لشـئون الحيـاة والمعاش والنشاط وارتفاع السماوات وإحكام وضعها ودقة صنعها

---

(١) روح المعانى ١١/٣٠.

ووجود الشمس المنيرة المتوهجة ونزول المطر وما ينشأ عنه من النبات... توالى هذه الحقائق والمشاهد على هذه النحو يوحى بالتناسق الدقيق ويشى بالتدبير والتقدير ويشــعر بالخـــالق الحكيم القدير ويلمس القلب لمسات موقظة موحية بما وراء هذه الحيـــاة من قصد وغاية ويدعوا هؤلاء المنكرين للبعث إلى أن يعترفوا ويقروا بأن من قدر على كل هذا لاتعجزه إعادتهم إلى النشأة الآخر.[١]

وبمعاودة النظر فى هذه الدلائل التى اقيمت لهؤلاء المنكرين للبعث نجد أنها قد وردت على طريقة ما عرف عند البلاغيين برد العجز على الصدر – الذى فيه تقرير وبيان وتديل – حيث ابتدئت بخلق الأرض وحالتها وجالت بهم الذكرى على أهم ما على الأرض من الجماد والحيوان ثم ما فى الأفق من أعراض الليل والنهار ثم تصاعد بهم التجوال بالنظر فى خلق السماوات وبخاصة الشمس ثم نزل بهم إلى دلائــل الســحاب والمطر فنزلوا معه إلى ما يخرج من الأرض من بدائع الصنائع ومنتهى المنافع فإذا هم ينظرون من حيث صدروا.[٢]

وبعــد أن نــبه – سبحانه – إلى هذه الظواهر الباهرة ولفت أنظار هؤلاء المــنكرين للــبعث إلى آياتــه القاهرة التى تثبت وتؤكد انفراده – تعالى – بالإلهية وتضمنت الإيماء إلى إمكان البعث وما أدمج فيها من المن عليهم عساهم أن يذكروا الــنعمة فيشــعروا بواجــب شكر المنعم ولا يستفظعوا إبطال الشركاء فى الإلهية ويــنظروا فيما بلغهم عنه من الإخبار بالبعث والجزاء فيصرفوا عقولهم للنظر فى دلائــل تصــديق ذلك – بعد أن نبه – سبحانه – إلى هذه الظواهر وتلك الأدلة أخذ يــبين مــا اختــلفوا فيه ونازعوا فى إمكان حصوله فقال – عز وجل – :"**إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا**" (سورة النبأ/١٧و١٨) وهو

---

(١) أنظر : فى ظلال القرآن ٣٨٠٦/٦ وتفسير المراغى ٦/٣٠ والأساس فى التفسير ٦٣٣٩/١١.
(٢) التحرير والتنوير ٢٨/٣٠.

استئناف بيانى مسوق للرد على سؤال مقدر وهو: ما وقت البعث الذى أثبت بالأدلة المتقدمة؟ فقال سبحانه: "**إن يوم الفصل كان ميقاتا... الخ**".

وجاء النظم الكريم مؤكدا بحرف التأكيد "إن" لأن فيه إبطالا لتردد الكفار[١] وتكذيبهم بيوم الفصل وهو يوم البعث للجزاء.

وحقيقة الفصل: التمييز بين الأشياء المختلطة[٢] وأوثر التعبير بـ"يوم الفصل" – والله العلم – لإثبات أمرين:

أحدهما : أنه وضح ثبوت ما مجدوه من البعث والجزاء وذلك فصل بين الصدق والكذب.

وثانيهما: القضاء بين الناس[٣] فيما اختلفوا فيه وما اعتدى به بعضهم على بعض.

وفى التعبير بالفعل "كان" دلالة على أن توقيت هذا اليوم متأصل فى علم الله – عز وجل – لما اقتضه حكمته – تعالى – التى هو أعلم بها وأن استعجالهم به لا يقدمه على ميقاته "ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلا لأجل معدود" (سورة هود / ١٠٣ و ١٠٤) وهذا إذا كان المعنى فى "كان" باعتبار العلم أما إذا كان المعنى فيها بمعنى المستقبل (كان بمعنى يكون) فإن النظم الكريم حينئذ يكون من باب التعبير بالماضى عن المستقبل لتحقق وقوعه.[٤]

و"الميقات" بزنة مفعال مشتق من الوقت وهو الزمن المحدد فى عمل ما ولذلك لايستعمل لفظ وقت إلا مقيدا بإضافة أو نحوها نحو: وقت الصلاة. "فالميقات" جاء على زنة اسم الآلة وأريد به – والله العلم – نفس الوقت المحدد به شئ مثل ميعاد وميلاد فى الخروج عن كونه اسم آله إلى جعله اسما لنفس ما اشتق منه.

---

(١) حاشية الصاوى ٣٨١/٤ وحاشية الشهاب ٣٠٥/٨.
(٢) المعجم العربى الأساسى مادة "فصل".
(٣) راجع : تفسير القرطبى ٧٢١١/١٠.
(٤) روح المعانى ١٢/٣٠.

والسياق دال على متعلق "ميقات" أى كان ميقاتا للبعث والجزاء فكونه "ميقاتا" كناية تلويحية عن تحقيق وقوعه إذ التوقيت لا يكون إلا بزمن محقق الوقوع ولو تأخر وأبطأ وهذا رد لسؤالهم تعجيله وعن سبب تأخيره سؤالا يريدون منه الاستهزاء بخبره.

والمعنى : ليس تأخر وقوعه دالا على أنتفاء حصوله وليس تكذيبهم به مما يحملنا على تغيير إبانه المحدد له ولكن الله – عز وجل – مستدرجكم مدة وفى هذا إنذار لهم بأنه لا يدرى لعله يحصل قريبا[1] قال تعالى: "... لا تأتيكم الا بغته..." (سورة الأعراف/١٨٧) وقال عز وجل : "قل عسى أن يكون قريبا" (سورة الإسراء/٥١) فثبوت هذه الميقاتية ليوم الفصل بين الخلائق غير مقيد بالزمان الماضى فإنه أمر مقدر قبل حدوث الزمان ولهذا قيد بعلم الله وحكمه وهكذا كان هذا اليوم فى تقدير الله وحكمه حدا تؤقت به هذه الحياة أو ميقاتا للخليقة تنتهى إليه لتمييز أحوالهم والأول – والله العلم – أوفق بالمقام على أن الدنيا تنتهى على ما قيل عند النفخة الأولى[2].

ثم بين – سبحانه – هذا اليوم وزاد فى تفخيمه وتهويله فقال: **"يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا" (سورة النبأ/١٨).**

قوله – عز وجل – "يوم" منصوب على الظرفية ففتحته فتحة إعراب لإضافته إلى جملة أولها معرب وهو المضارع وقوله – تعالى – "يوم ينفخ فى الصور" بدل من "يوم الفصل" وفائدته – والله العلم – حصول التفصيل لبعض أحوال الناس وبعض أهوال يوم الفصل أو عطف بيان مفيد لزيادة تفخيمه وتعظيمه وتهويله ولا ضير فى تأخر الفصل عن النفخ فإنه زمان ممتد يقع فى مبدئه النفخة

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٠.
(٢) راجع : تفسير الكشاف ٦٨٧/٤ ومفاتيح الغيب ١٤٣/١٦ وروح المعانى ١٢/٣٠.

وفى بقيته الفصل ومباديه وآثاره.[١] وجاء المضارع "ينفخ" مبنيا للمفعول لعدم تعلق الغـرض بمعرفة النافخ وإنما الغرض معرفة هذا الحادث العظيم المفزع وصورة حصوله.[٢] و"الصور" البوق[٣] ينفخ فيه النافخ فيخرج منه الصوت قويا لنداء الناس إلى الإجـتماع. والـنفخ فى الصور يجوز أن تمثيلا لهيئة دعاء الناس وبعثهم إلى الحشـر بهيئة جمع الجيش المتفرق لراحة أو تتبع عدو فلا يلبثون أن يتجمعوا عند مقـر أميـرهم. ويجوز أن يكون نفخا يحصل به الإحياء لا تعلم صفته فإن أحوال الآخـرة ليست على أحوال الدنيا فيكون النفخ معبرا عن أمر التكوين الخاص وهو تكوين الأجساد بعد بلاها وبث أرواحها فى بقاياها.

والفـاء فى قوله – تعالى – "فتأتون" فصيحة تدل على محذوف أى فتأتون إلى موضع العرض وهى عاطفة تفيد الترتيب والتعقيب ففى عطف الفعل المضارع "تأتون" بالفاء دلالة على تعقيب النفخ بمجيئهم إلى الحساب. وحذف ما يحصل بين النفخ فى الصور وبين حضورهم لدلالة الحال عليه ولزيادة الإيذان بسرعة حصول الإتيان حتى كأنه يحصل عند النفخ فى الصور فكأنه قال: ينفخ فى الصور فتبعثون مـن قبوركم فتأتون إلى الموقف عقيب ذلك من غير لبث أصلا[٤] و "أفواجا" حال من ضمير "تأتون" والأفواج جمع فوج وهو الجماعة المتصاحبة من أناس مقسمين باختلاف الأغراض فتكون الأمم أفواجا ويكون الصالحون وغيرهم أفواجا كما قال تعالى: "كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير" (سورة الملك/٨) والمعنى – والله العـلم – فـتأتون مقسمين طوائف وجماعات وهذا التقسيم بحسب الأحوال

---

(١) إرشاد العقل السليم ٨١٤/٤ وروح المعانى ١٢/٣٠.
(٢) نظم الدرر ٢٠٠/٢١.
(٣) هـو قرن ثور فارغ الوسط مضيق بعض فراغه ويتخذ من الخشب أو من النحاس ينفخ فيه النافع فيخرج منه الصوت قويا لنداء الناس إلى الإجتماع وأكثر ما ينادى به الجيش والجموع المنتشرة لتجتمع إلى عمل يريده الأمر بالنفخ.
(٤) إرشاد العقل السليم ٨١٤/٥.

كالمؤمنين والكافرين وكل أولئك أقسام ومراتب.[١] وقال عطاء : كل نبى يأتى مع أمته ونظيره قوله تعالى: "يوم ندعوا كل إناس بإمامهم" (سورة الإسراء/٧١) وقيل: جماعات مختلفة.[٢]

ثــم ذكر – سبحانه – أوصاف ذلك اليوم الرهيب بادئا بالعلوى من الآفاق لشـــرفه فقال: "**وفتحت السماء فكانت أبوابا**" (سورة النبأ/١٩) بالعطف على جملة "يـــنفخ فى الصور" وصيغة الماضى المبنى للمجهول للدلالة على التحقق من وقوع هذا التفتيح حتى كأنه قد مضى وقوعه. وذهب البعض إلى القول بأنه معطوف على قوله تعالى: "فتأتون" على أساس أن المضارع "تأتون" حكاية لحال ماضية وما نحن فيه "فتحت" مضارع جئ به بلفظ الماضى تفخيما وتحقيقا لوقوعه فهو أقرب قريب مـــنه أو على أساس أن قوله تعالى "وفتحت السماء ...الخ" جملة حالية من ضمير تـــأتون" أى فـــتأتون والحال أنها قد فتحت[٣] وقرئ "وفتحت السماء... الخ" بتشديد الفوقيـــة بدليـــل قوله تعالى "فكانت أبوابا" وقوله عز وجل "جنات عدن مفتحة لهم الأبواب" (سورة ص/٥٠) وهو مبالغة فى الفتح بكثرته وشدته وفى هذا إشارة إلى أنه فتح عظيم لا يقدر عليه إلا الله عز وجل.

وأمـــا قراءة تخفيف الفوقية فهى على أصل الفعل الذى يكون للقليل والكثير ومع هذا فهى تشعر أيضا بأنه فتح شديد لتعلقه بالسماء.

وفى التعـــبير بالفتح إشارة إلى أن السماء كانت ملتئمة ثم فسد هذا الإلتئام فالقراءتان سواء فى المعنى المقصود وهو: تهويل يوم الفصل.

---

(١) التحرير والتنوير ٣١/٣٠.
(٢) مفاتيح الغيب ١٤٤/١٦.
(٣) الفتوحات الإلهية ٤٧٣/٤ و روح المعانى ١٢/٣٠.

وفسر الفتح بالشق لقوله تعالى: "ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا" (سوة الفرقان/٢٥) وقوله سبحانه "إذ السماء انشقت" (سورة الأنشقاق/١) وقوله عز وجل "إذا السماء انفطرت" (سورة الانفطار/١) إذ الفتح والتشقق والتفطر تتقارب وفى هذا إشارة إلى كمال قدرته تعالى حتى كأن شق هذا الجرم العظيم كفتح الباب سهولة وسرعة.

و "كانت" بمعنى "صارت" وقرينه ذلك أنه مفرع على انفتاح السماء بفاء التعقيب فدل ذلك على الانتقال من حال إلى أخرى.

ولما كانت السماء لا تصير بالشق أبوابا حقيقية فإن النظم الكريم يخرج على ما عرف بالتشبيه البليغ أى فصارت شقوق السماء لسعتها كالأبواب[١] أو فصارت من كثرة الشقوق كأن الكل أبواب وحينئذ لا يبقى حاجز بين سكان السماوات وبين الناس.

أو يخرج النظم على تقدير مضاف أى فصارت ذات أبوبا وحينئذ يكون الإخبار عن السماء بأنها أبوبا قد جرى على طريقة المبالغة فى الوصف بذات أبواب للدلالة على كثرة المفاتح فيها حتى كأنها هى أبواب[٢] أو يخرج النظم الكريم على احتمال آخر وهو عود الضمير فى "كانت" إلى مقدر دل عليه الكلام أى فكانت تلك المواضع المفتوحة أبوابا.[٣]

ولما ذكر السقف فقد ذكر أقرب الأرض إليه فقال: **"وسيرت الجبال فكانت سرابا" (سورة النبأ/٢٠).**

التسيير : جعل الشئ سائر أى ماشيا وقال الراغب: "التسيير ضربان: أحدهما: بالأمر والاختيار والإرادة من السائر نحو: "هو الذى يسيركم" (سورة

---

(١) حاشية الشهاب ٣٠٥/٨.
(٢) التحرير والتنوير ٣٣/٣٠.
(٣) غرائب القرآن ٨/٣٠.

يونس/٢٢) والثانى : بالقهر والتسخير كتسخير الجبال "وإذا الجبال سيرت" (سورة التكوير/٣) وقوله : "وسيرت الجبال" (سورة النبأ/٢٠)[١]

وأطـــلق التسيير هنا على النقل من مكان إلى مكان أى نقلت الجبال وقلعت مـــن مقارها بسرعة كما دل عليه قوله تعالى: "يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا" (سورة المزمل/١٤) وقوله: "وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمرمـــر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ" (سورة النمل/٨٨). وصيغة الماضى المبـــنى للمجهول "سيرت" للدلالة على التحقق من وقوع هذا التسيير حتى كأنه قد مضـــى وقوعـــه. و "كـــانت" بمعنى : "صارت" وقرينة ذلك أنه مفرع على تسيير الجبال بفاء التعقيب فدل ذلك على أن نقل الجبال وقلعها من مقارها يصحبه تفتيت لأن ظاهر التعقيب أن لا تكون معه مهلة.

و "الســـراب" ما يرى منتصف النهار فى الصحراء من بعيد كالماء يلصق بالأرض وليس بماء ولكنه حالة فى الجو القريب تنشأ من تراكم أبخرة على سطح الأرض[٢] ويضرب به المثل فى الكذب والخداع يقال: هو أخدع من السراب.

فالجـــبال تصـــير شيئا كلا شئ لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها[٣] كقوله تعالى: "وبست الجبال بسا. فكانت هباء منبثا" (سورة الواقعة/٥و٦) فالنظم الكريم قد جـــاء على طريقة ما عرف عند البلاغيين بالتشبيه البليغ لحذف أداة التشبيه ووجه الشبه حيث شبه الجبال التى ترى فى الجو على هيئتها كأنها جبال وليست كذلك فى نفـــس الأمر لقلعها من مقارها وتفتتها بالسراب الذى يرى من بعيد للظامئ الملتاح كأنه ماء فيستبشربه ويخف إليه حتى إذا أدركه بعد طول الأين لم يجده شيئا فى أن المرئى خلاف الواقع فى كل من الجبال والسراب.

---

(١) المفردات مادة : سار.
(٢) المعجم العربى الأساسى مادة (سرب) وراجع : روح المعانى ١٢/٣٠.
(٣) تفسير الكشاف ٦٨٨/٤.

وإذا تتبعـــنا كلمة "سيرت" بالنسبة للجبال نجد أنها قد وردت فى أربع سور من القرآن الكريم وهى: الكهف (الآية /٤٧) والطور (الآية/١٠) والنبأ (الآية/٢٠) والـــتكوير (الآيـــة/٣) إلا أنهـــا لم تتعرض فى ثلاث منها إلى ماذا تصير إليه بعد التســـيير وفى ســـورة النبأ أو صلتنا إلى نتيجة التسيير وهى: أنها تصير سرابا أى غير موجودة.

هـــذا : وبالنظر فى آى الذكر الحكيم نجد أن الجبال قد أخذت حظلوافرافية فـــلقد ذكرت ست مرات بصيغة الإفراد "جبل"[١] وثلاثا وثلاثين مرة بصيغة الجمع (جبال)[٢] منهم أربع عشرة مرة متعلقة بأحوال الجبال فى يوم القيامة.[٣]

وإذا دققـــنا النظر نجد أن طبائع الجبال مختلفة ولذا فإن الحالة التى تؤول اليهـــا الجـــبال لتنتهى إلى عدم تأخذ عدة صور يمكن الجمع بينها بأن تدك أولا ثم تصـــير كالعهن المنفوش ثم تتقطع وتتبدد فتصير كالهباء المنبث وهى فى كل هذه الأحـــوال باقية فى مواضعها ثم تنسف عن الأرض بإرسال الرياح عليها فتطيرها شـــعاعا فى الهـــواء كأنهـــا غـــبار ثم تصير سرابا أى شيئا لا شئ فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئا كما أن من يرى السراب من بعد إذ جاء الموضع الذى كان يراه فيه لم يجده شيئا.[٤]

---

(١) سورة البقرة/٢٦٠ وسورة الأعراف/٢/١٤٣ و ١٧١ وسورة هود /٤٣ وسورة الحشر/٢١.
(٢) ســوة الأعــراف /٧٤ و سورة هود /٤٢ وسورة الرعد /٣١ وسورة ابراهيم /٤٦ وسورة الحجــر/٨٢ وســورة الــنحل /٦٨ و ٨١ وسورة الإسراء /٣٧ وسورة الكهف /٤٧ وسورة مريم/٩٠ وسورة طه /١٠٥ وسورة الأنبياء /٧٩ وسورة الحج/١٨ وسورة النور/٤٣ وسورة الشــعراء/١٤٩ وســورة النمل/٨٨ وسورة الأحزاب/٧٢ وسورة سبأ /١٠ وسورة فاطر/٢٧ وسورة ص/١٨ وسورة الطور/١٠ وسورة الواقعة/٥ وسورة الحاقة/١٤ وسورة المعارج/٩ وســورة المــزمل٢/١٤ وسورة المرسلات/١٠ وسورة النبأ/٧ و ٢٠ وسورة النازعات/٣٢ وسورة التكوير/٣ وسورة الغاشية /١٩ وسورة القارعة/٥.
(٣) ســور: الكهف/٤٧ ومريم /٩٠ وطه/١٠٥ والنمل/٨٨ والطور/١٠ والواقعة/٥ والحاقة/١٤ والمعارج/٩ والمزمل/٢/١٤ والمرسلات /١٠ والنبأ/٢٠ والتكوير /٣ والقارعة /٥.
(٤) راجع : مفاتيح الغيب ١٤٦/١٦و ١٤٧ وغرائب القرآن ٨/٣٠.

وبعـــد أن بين – سبحانه – صورة الانقلاب الهائل الذى سيحدث فى الكون شرع فى تفصيل أحكام الفصل الذى أضيف إليه اليوم فقال:

"**إن جهـــنم كانت مرصادا. للطاغين مئابا. لابثين فيها أحقابا**" (سورة النبأ/ ٢١و٢٢و٢٣). "جهـــنم " مـــن أســـماء النار التى يعذب بها الله – عز وجل – من اســـتحق العـــذاب من عبادة وهو اسم معرب[١] وسميت بذلك لأنها تلقى أصحابها مـــتجهمة لهم بغاية ما يكرهون[٢] والمرصاد: اسم للمكان الذى اختص بالترصد[٣] "الـــترقب" كالمضمار للموضع الذى تضمر فيه الخيل حتى يخف وزنها و "المنهاج" للموضـــع الـــذى يـــنهج مـــنه والمعنى: إن جهنم موضع يرصد منه الموكلون بها ويترقـــبون من يزجى إليها من أهل الطغيان كما يترقب أهل المرصاد من يأتيه من عدو. أو أن الموكلين بها يستقبلون المؤمنين عند جهنم ويرصدونهم عندهم لانجائهم مـــن الـــنار عند ورودها لقوله تعالى: "وإن منكم إلا واردها" (سورة مريم/٧١)[٤] فاستعمالها فى هذا المعنى استعمال حقيقى.

ويجـــوز أن يكون "مرصادا" مصدرا على وزن "مفعال" و الإخبار به عن جهـــنم للمبالغة كأنها أصل الرصد ويكون المعنى: أن جهنم لا تفلت أحدا ممن حق عـــليهم دخولها وتشق عليهم كما قال تعالى: "تكاد تميز من الغيظ" (سورة الملك/٨) فإســـناد الرصـــد إلى جهنم اسناد مجازى ويجوز أن يكون "مرصادا" صيغة مبالغة للراصـــد الشـــديد الرصـــد مثل صفة مغيار ومعطار وصفت به جهنم على طريقة الاســـتعارة ولم تلحقه "هاء التأنيث" لأن جهنم شبهت بالواحد من الرصد (بتحريك الصاد) وهو الواحد من الحرس الذى يقف بالمرصد إذ لا يكون الحارس إلا رجلا وكأن جهنم كانت كالمنتظرة لقدومهم وكالمستدعية والطالبة لهم والمعنى: إن جهنم

---

(١) مختار الصحاح والمعجم الوسيط مادة "جهنم".
(٢) نظم الدرر ٢١/٢٠٣.
(٣) المفردات مادة "رصد".
(٤) مفاتيح الغيب ١٦/ ١٤٧.

مجـــدة فى ترصـــد الكفـــرة لئلا يشذ منهم واحد أو مجدة فى ترصد المؤمنين لئلا يتضرر أحد منهم من فيحها أو مجدة فى فى ترقب الطائفتين[١] فلا يخرج منها كافر ولا يدخـــل فيهـــا أو يتأذى منها مؤمن. وهى بهذا الصنيع تشبه الحارس المجد فى حراسته الملتزم بقوانين وظيفته.

وجملة "إن جهنم كانت مرصادا" يجوز أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا عن جمـــلة "إن يـــوم الفصـــل كـــان ميقاتا" وما لحق بها لأن ذلك مما يثير فى نفوس الســـامعين سؤالا ماذا سيكون بعد تلك الأهوال. فأجيب بمضمون: "إن جهنم كانت مرصادا" ويجوز أن تكون جملة "إن جهنم ... الخ" فى موضع خبر ثان لـــ"إن" من قوـــله "إن يوم الفصل كان ميقاتا" والتقدير : إن يوم الفصل إن جهنم كانت مرصادا فيـــه للطاغين والعائد محذوف دل عليه قوله "مرصادا" أى مرصادا فيه أى فى ذلك اليوم لأن معنى المرصاد مقترب من معنى الميقات إذ كلاهما محدد لجزاء الطاغين ودخول حرف "إن" فى خبر "إن" يفيد تأكيدا على التأكيد الذى أفاده "إن" الداخل على قوله تعالى "يوم الفصل" على حد قول الشاعر:

إن الخـــــليفة إن الله ســـــــربله سـربال مـلك به تزجى الخواتيم

وتكـــون الجملة من تمام ما خوطبوا به بقوله "يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا" وعـــلى هذا القول يكون التعبير بعد ذلك بقوله "للطاغين" إظهار فى مقام الإضمار للتســـجيل عليهم بوصف الطغيان لأن مقتضى الظاهر أن يقول: "لكم مئابا" بخلاف القـــول الأول فليس فى قوله – عز وجل – "للطاغين" تخريج على خلاف مقتضى الظاهر.[٢] وابتدى بذكر "جهنم" لأن المقام مقام تهديد إذ ابتدئت السورة بذكر تكذيب المشـــركين بالبعث وأقحم "كانت" دون أن يقال: "إن جهنم مرصاد" للدلالة على أن جعلها مرصادا أمر مقدر لها وفيه إيماء إلى سعة علم الله تعالى حيث أعد فى أزله

(١) راجع : روح المعانى ١٢/٣٠.
(٢) التحرير والتنوير ٣٤/٣٠.

عقابـــا لـــلطاغين و "الطغيـــان" تجاوز الحد فى عدم الإكترات بحق الغير والكبر. والتعريف فيه للعهد فالمراد به: المشركون المخاطبون بقوله تعالى: "فتأتون أفواجا" فهـــو إظهار فى مقام الإضمار لقصد الإيماء إلى سبب جعل جهنم لهم لأن الشرك أقصى الطغيان.

هــذا : وأن المسلمين المستخفين بحقوق الله – عز وجل – أو المعتدين على الناس بغيــر حــق لهم حظ من هذا الوعيد بمقدار اقترابهم من حال أهل الكفر. و "مئابا" مكان الأوب وهو الرجوع أطلق على المقر والمسكن والمأوى إطلاقا أصله كناية ثم شاع استعماله فصار اسما للموضع الذى يستقر به المرء وتدل هذه الكلمة على أن الأوبة أمر مقطوع بها فكأنهم فى رحلة ويعودون إلى جهنم.

هذا: واللام فى "للطاغين" حرف جر يفيد الاستحقاق مبنى على الكسر و "الطاغين" اسم مجرور وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالما والجار والمجرور شبه جملة متعلق بـــ"مرصادا" أو هو نعت له فى محل نصب وأما متعلق "مئابا" فهو مقدر دل عـــليه "للطاغين" وعلى هذا يكون كالتضمين فى الشعر إذ كانت بقية لما فى القرينة الأولى فى القرينة المؤالية فتكون القرينة طويلة.[١]

ويجـــوز أن يكون شبه الجملة "للطاغين" متعلق بـــ "مئابا" أو هو حال منه قدم عليه لكونه نكرة ولو تأخر لكان صفة.

وإعـــراب هـــذا الجار والمجرور "للطاغين" أو تعلقه بأحد اللفظين السابقين دون الآخر إنما يقوم على التفصيل التالى:

إذا قلنا إن "مرصادا" خاص بالكافرين كان قوله تعالى "للطاغين" من تمام ما قـــبله والـــتقدير : إن جهنم كانت مرصادا للطاغين وقوله عز وجل "مآبا" بدل من "مرصـــادا" وإن قلنا بأنها كانت مرصادا مطلقا للكفار والمؤمنين كان قوله سبحانه.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٥.

إن جهـــنم كانت مرصادا "كلا ما تاما وقوله" للطاغين مئابا" كلام ابتدائى كأنه قيل: إن جهـــنم مرصاد للكل ومآب للطاغين خاصة و "مآبا" بدل من "مرصادا" أو خبر ثـــان لـــ"كانت" ومن قال بالقول الأول لايقف عند قوله "مرصادا" ومن قال بالقول الثانى يقف عليه[١] ثم ذكر سبحانه مدة إقامة الطاغين فى جهنم فقال: "لا بثين فيها أحقابـــا" اللابـــث : المقيم بالمكان يقال: لبث بالمكان: أقام به ملازما له[٢] وانصب "لابـــثين" على أنها حال من الضمير فى "الطاغين" و "الأحقاب" جمع حقب وحقب وهو: المدة الطويلة من الدهر ثمانون سنة أو أكثر[٣] وقال الراغب: الأحقاب جمع الحقـــب وهو الدهر والحقب جمع: حقبة قيل: والحقبة: ثمانون عاما وجمعها: حقب والصـــحيح أن الحقـــبة: مدة من الزمان مبهمة[٤] وأيا ما كان فالمعنى: لابثين فيها أحقابـــا متتابعة كلما مضى حقب تبعه حقب آخر وهكذا إلى الأبد. وإفادة التتابع فى الاستعمال جاءت من عدة طرق يمكن إجمالها فيما يلى:

بشـــهادة الاشـــتقاق فإنـــه من الحقيبة وهى ما يشد خلف الراكب والمتتابعات يكون أحدهـــا خلف الآخر كما يشهد لذلك تفسير اللغويين له بالدهر وكذلك ما روى عن الحسن بأنه: زمان غير محدد وكذا ما قاله ابن كيسان فى معنى: "لابثين فيها أحقابا" من أنه لاغاية لها ولا انتهاء فكأنه قال أبدا[٥] ويبين هذا أيضا الآيات الأخرى الدالة على خلود المشركين كقوله تعالى: "وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم" (سورة المـــائدة/٣٧)[٦] وممـــا يقوى إفادة التتابع أنه لم يدل على التوقيت بأنه قال خمسة أحقـــاب أو عشـــرة أحقـــاب ونحوه إذا سلمنا بأن الحقب متناه فإننا لانسلم بانتهاء

---

(١) مفاتيح الغيب ١٤٨/١٦.
(٢) المفردات مادة "لبث".
(٣) المعجم العربى الأساسى مادة "حقب".
(٤) المفردات مادة "حقب".
(٥) تفسير القرطبى ٧٢١٥/١٠.
(٦) غرائب القرآن.

الأحقاب لأن الجمع لايلزم تناهى آحاده ومن هنا يجوز أن يكون المعنى: كلما يدل على خروج الكفرة من النار وعدم خلودهم فيها حتى يحتاج إلى دعوى نسخ ذلك بآيات الخلود أو يحتاج إلى جعل الآية لعصاة المؤمنين فإن ذلك ليس من شأن القرآن المكى الأول إذ قد كان المؤمنون أيامئذ صالحين مخلصين مجدين فى أعمالهم كما أن صيغة القلة لاتنافى فى عدم التناهى إذ لافرق بين تتابع الأحقاب الكثيرة إلى ما لا يتناهى وتتابع الأحقاب القليلة. وقيل إن الآية قد ذكر فيها "الأحقاب" لأن "الحقب" كان أبعد شئ عندهم فتكلم بما تذهب إليه أو هامهم ويعرفونها وهى كناية عن التأبيد أى يمكثون فيها أبدا[١] وهناك وجوه أخرى مردود عليها[٢] وجاء فى الكشاف أن "أحقابا" من حقب عامنا هذا إذا قل خيره وحقب فلان إذا أخطأ الزرق فهو حقب كحذر وجمعه أحقاب فينتصب حالا منهم أى لابثين فى أسوأ حال.[٣]

وبعد أن ذكر – سبحانه – أن جنهم على موعد معهم وأنها قد أعدت لهم ورصدت للقائهم وأنها مستقرهم وأنهم سيمكثون فيها دهورا متلاحقة يتبع بعضها بعضا بين أحوالهم فيها فقال – عز وجل – : "**لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وعساقا. جزاء وفاقا**" (سورة النبأ/٢٤ و ٢٥ و ٢٦).

الذوق : وجود الطعم بالفم وأصله فيما يقل تناوله دون ما يكثر فإن ما يكثر يقال له: الأكل ويطلق على الإحساس بغير الطعوم إطلاقا مجازيا وشاع فى كلامهم: ذاق الألم واختير فى القرآن الكريم لفظ "الذوق" فى العذاب لأن ذلك – ولله العلم – وإن كان فى التعارف للقليل فهو مستصلح للكثير فخصه بالذكر ليعم

---

(١) تفسير القرطبى ٧٢١٤/١٠.
(٢) راجع : المصدر السابق ٧٢١٥/١٠ و ٧٢١٦ وروح المعانى ١٥/٣٠.
(٣) تفسير الكشاف ٦٨٩/٤.

الأمـــرين وكثر استعماله فى العذاب نحو: "ليذوقوا العذاب – وقيل لهم ذوقوا عذاب النار – فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون – ذق إنك أنت العزيز الكريم" وقد جاء فى الرحمة نحو قوله عز وجل : "ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ... – ولئن أذقناه نعماء بعـــد ضـــراء مسته".[١] وقد استعمل فى النظم الكريم الذى معنا فى معنييه الحقيقى والمجازى. المجازى فى "البرد" والحقيقى فى "الشراب".

والـــبرد : خلاف الحر وهو تنفيس للذين عذابهم الحر أى لا يغاثون بنسيم بـــارد أو لا يجدون هواء باردا يسترحون به من نار جهنم والذوق على هذا مجاز. ومن المعلوم أن "البرد" ألذ ما يطلبه المحرور. ولما كان الهواء المستنشق ممره الفم والأنـــف جـــاز إطلاق لفظ الذوق عليه وعلى هذا فقوله تعالى: "ولاشرابا" من نفى العام بعد الخاص.

وعـــن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن البرد : الشراب البارد المستلذ والذوق[٢] على هذا حقيقة.

وعـــن الأخفـــش والكســـائى والفـــراء وغيرهم تفسير "البرد" بالنوم وأنشد أبو عبيدة والمبرد فى بيان أن المراد به "النوم" – وذلك أن البرد لازم للنوم ولهذا يبرد سورة العطش – قول الشاعر:

بـــردت مراشـــفها عـــلى فصـــدنى	عـــنها وعـــن رشـــفاتها الـــبرد

يعنى : النوم وهو استعمال مجازى.

وقال المبرد : ومن أمثال العرب: "منع البرد البرد" أى أصابنى من البرد ما منعنى من النوم[٣].

---

(١) المفردات مادة "ذوق".
(٢) روح المعانى ١٥/٣٠.
(٣) مفاتيح الغيب ١٥١/١٦.

وأيا ما كان فحمل الآية الكريمة عليه تكلف لا داعى له لأنه إذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة أو على الاستعمال المشهور – كما فى الاستعمال الأول – فلا معنى لحمله على المجاز النادر الغريب كما فى الاستعمال الثانى بالإضافة إلى أن عطف قوله تعالى: "ولا شرابا" يناكده. وحقيقة "الشراب" تناول كل مائع ماء كان أو غيره وإدخاله إلى الجوف أو تناول كل ما لا يتأتى فيه المضغ وإدخاله إلى الجوف.

والمراد هنا – والله العلم – الماء أو غيره مما يزيل العطش. و"الحميم": الماء الشديد الحرارة و "الغساق" ما يقطر من جلود أهل النار (الصديد الذى يسيل من جروح الحروق) وعن ابن عباس وأبى العالية: "الغساق": الزمهرير وهو مستثنى من "بردا" إلا أنه أخر لتوافق رؤوس الآى.[١]

هذا : وقوله تعالى: "لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ...... الخ" يجوز أن يكون حالا ثانية من "الطاغين" أو حالا أولى من الضمير فى "لابثين" وأن يكون خبرا ثالثا لـ"كانت مرصادا" وعلى هذه الوجوه.

يكون الضمير فى قوله تعالى: "فيها" عائدا إلى "جهنم" والكلام على هذا كلام ابتدائى ليس متصلا بما قبله والظرفية مكانية وكأن تقديم جهنم يشير إلى أنهم يذوقون فى دار أخرى الزمهرير[٢] ويجوز أن يكون قوله سبحانه: "لايذوقون...الخ" صفة لـ"أحقابا" لا يذوقون فى تلك الأحقاب بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا وعلى هذا يكون الضمير فى قوله عز وجل: "فيها" عائدا إلى الأحقاب والكلام متصل بما قبله والظرفية زمانية و "إلا" أداة استثناء وهى للاستثناء المتصل فى رأى وللمنقطع فى رأى أخر. فعلى القول بالاستثناء المتصل يكون قوله تعالى: "حميما" مستثنى من

---

(١) روح المعانى ١٦/٣٠.
(٢) نظم الدرر ٢٠٥/٢١.

"شرابا" فى الآية السابقة منصوب وعلامة نصبه الفتحة أو هو بدل منه وهو الأصل لأن الكلام غير موجب.

أمـــا القـــول بالاستثناء المنقطع فيستند إلى أن "الحميم" و "الغساق" ليسا من جنس الشراب المحرومين منه فليس "الحميم" من جنس "البرد" فى شئ إذ هو شديد الحـــر وليس "الغساق" من جنس الشراب إذ ليس الصديد من جنس الشراب وعلى هـــذا القول يكون مافى النظم الكريم من استثناء قد جاء على طريقة: اللف والنشر المـــرتب أى لا يذوقون فيها شيئا يروحهم وينفس عنهم حر النار ولا شرابا يسكن عطشهم لكن يذوقون ماء حارا وصديدا.(١)

وفى هـــذا تصـــوير لبشـــاعة العذاب الذى يحيق بهؤلاء الكافرين وقد مال صاحب الكشاف إلى القول بالاستثناء المنقطع: لا يذوقون فيها بردايينفس عنهم حر النار ولا شرابا يسكن من عطشهم ولكن يذوقون فيهما حميما وغساقا.(٢)

والمعـــنى: يذوقـــون الحميم إذ يراق على أجسادهم والغساق إذ يسيل على مواضع الحـــرق فيـــزيد ألمهـــم وصـــورة الاستثناء هنا من تأكيد الشئ بما يشبه ضده فى الصورة.(٣)

ولما حكم سبحانه عليهم بهذا العذاب الذى لا يطاق ذكر حكمته وبين عدالته تعالى معهم فقال: "جزاء وفاقا" أى أننا لم نظلمهم بإلقائهم فى جهنم وإنما جاز يناهم بذلك جزاء موافقا لأعمالهم السيئة فى الدنيا.

فقوله : "جزاء" منصوب على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف وقوله "وفاقا" صفة له والوفاق: مصدر وافق وهو هنا بمعنى اسم الفاعل أى جوز وأجزاء موافقا لأعمالهم القبيحة التى كانوا يعلمونها فى الدنيا.

---

(١) تفسير البحر المحيط ٤١٣/٨.
(٢) تفسير الكشاف ٦٨٩/٤.
(٣) تفسر التحرير والتنوير ٣٨/٣٠.

أو "جـــزاء" منصـــوب على الحال من ضمير "يذوقون" أى حالة كون ذلك جـــزاء أى مجـــازى بـــه فالحـــال هنا مصدر مؤول بمعنى الوصف وهو أبلغ من الوصـــف والوفاق مصدر وافق وهو مؤول بالوصف أى موافقا للعمل الذى جوزوا عـــليه وهـــو الـــتكذيب بالـــبعث وتكذيـــب القرآن كما دل عليه التعليل بعده بقوله – عـــز وجل–: "**إنهم كانوا لايرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا**" فإن ذلك أصل إصـــرارهم عـــلى الكفـــر وهما أصلان: أحدهما عدمى وهو إنكار البعث والآخر وجودى وهو نسبتهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – والقرآن للكذب فعوقبوا على الأصـــل العـــدمى بعقـــاب عدمى وهو حرمانهم من البرد والشراب وعلى الأصل الوجـــودى بجـــزاء وجـــودى وهو الحميم يراق على أجسادهم والغساق يمر على جراحهم وفى معنى هذا النظم الكريم وجهان:

الأول : أنـــه تعالى أنزل بهم عقوبة شديدة بسبب أنهم أتوا بمعصية شديدة فيكـــون العذاب "وفاقا" للذنب ونظيره قوله تعالى: "**وجزاء سيئة سيئة مثلها**" (سورة الشورى/٤٠).

والثانى : أنه "وفاقا" من حيث لم يزد على قدر الاستحقاق ولم ينقص عنه.

فـــإن قيل كيف يكون هذا العذاب البالغ فى الشدة غير المتناهى بحسب المدة "وفاقا" للإتيان بالكفر لحظة واحدة، وأيضا فعلى قول أهل السنة إذا كان الكفر واقعا بخلق الله – عز وجل – وإيجاده فكيف يكون هذا وفاقا له؟

وأمـــا عـــلى مذهب المعتزلة فكان علم الله – تعالى – بعدم إيمانهم حاصلا ووجود إيمانهم مناف بالذات لذلك العلم فمع قيام أحد المتنافيين كان التكليف بإدخال المـــنافى الثانى فى الوجود ممتنعا لذاته وعينه ويكون تكليفا بالجمع بين المتنافيين فكيف يكون مثل هذا العذاب الشديد الدائم وفاقا لمثل هذا الجرم؟

قلنا : يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد.[١]

ولما بين – سبحانه – على الإجمال أن ذلك الجزاء كان على وفق جرمهم علل ما أصابهم من عذاب أليم وشرح أنواع جرائمهم التى صاروا من أجلها إلى هذا المصير الكئيب المشئوم فقال عز وجل:

"إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا" (سورة النبأ/٢٧و٢٨)

فموقع هذا النظم الكريم موقع التعليل لجملة "إن جهنم كانت مرصادا.... جزاء وفاقا" ولذلك فصلت. والضمير فى "إنهم" عائد إلى "الطاغين".

وحرف "إن" للإهتمام بالخبر وليست لرد الإنكار إذ لا ينكر أحد أنهم لا يرجون حسابا وأنهم مكذبون بالقرآن وشأن "إن" إذا قصد بها مجرد الإهتمام أن تكون قائمة مقام فاء التفريع مفيدة للتعليل ... فالجملة معترضة بين ما قبلها وبين جملة: "فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا" (سورة النبأ/٣٠) وقد علمنا مناسبة جزائهم لجرمهم عند قوله تعالى آنفا "جزاء وفاقا" مما يزيد وجه التعليل وضوحا وقوله – عز وجل – "لايرجون حسابا" نفى لرجائهم وقوع الجزاء.

والرجاء اشتهر فى ترقب الأمر المحبوب والحساب ليس خيرا لهم حتى يجعل نفى ترقبه من قبيل نفى الرجاء فكان الظاهر أن يعبر عن ترقبه بمادة التوقع الذى هو ترقب الأمر المكروه، فيظهر أن وجه العدول عن التعبير بمادة التوقع إلى التعبير بمادة الرجاء أن الله – عز وجل – لما أخبر عن جزاء الطاغين وعذابهم تلقى المسلمون ذلك بالمسرة وعلموا أنهم ناجون مما سيلقاه الطاغون فكانوا مترقبين يوم الحساب ترقب رجاء، فنفى رجاء يوم الحساب عن المشركين جامع بصريحة معنى عدم إيمانهم بوقوعه وبكنايته رجاء المؤمنين وقوعه بطريقة الكناية

---

(١) مفاتيح الغيب ١٨/١١.

التعريضـــية تعريضا بالمسلمين وهى أيضا تلويحية لما فى لازم مدلول الكلام من الخفاء.

ومـــن المفسرين من فسر "يرجون" بمعنى "يخافون"[١] وهو تفسير بحاصل المعنى وليس تفسير اللفظ.

وفعل "كانوا" دل على أن انتفاء رجائهم الحساب وصف متمكن من نفوسهم وهم كائنون عليه وليس المراد – والله العلم – بفعل "كانوا" أنهم كانوا كذلك فانقضى لأن هذه الجملة إخبار عنهم فى حين نزول الآية وهم فى الدنيا وليست مما يقال لهم أو عنهم يوم القيامة.

وجئ بفعـــل "يـــرجون" مضــــارعا للدلالة على استمرار انتفاء ماعبر عنه بالرجاء وذلك لأنهم كلما أعيد لهم ذكر يوم الحساب جددوا إنكاره وكرروا شبهاتهم عـــلى نفى إمكانه لأنهم قالوا" إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين" (سورة الجاثية/ ٣٢).

و"الحساب" العد أى عد الأعمال والتوقيف على جزائها أى لايرجون وقوع حساب على أعمال العباد يوم الحشر.

و"كذبـــوا" عطف على "لا يرجون" أى وأنهم كذبوا بآياتنا أى بآيات القرآن. **والمعـــنى:** كذبـــوا ما اشتملت عليه الآيات من إثبات الوحدانية ورسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ولكـــون تكذيبهم بذلك قد استقر فى نفوسهم ولم يترددوا فيه جئ فى جانبه بـــالفعل الماضـــى لأنهم قالوا: "قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب" (سورة فصلت /٥).

---

(١) المصدر السابق الموطن نفسه.

و"كذاب" بكسر الكاف وتشديد الذال مصدر كذب والفعال بكسر الفاء وتشديد العين مصدر فعل ومجئ فعال بمعنى تفعيل فى مصدر فعل فصيح ونظائره: القصار مصدر قصر والقضاء مصدر قضى والخراق مصدر خرق والفسار مصدر فسر وعن الفراء هى لغة فصيحة وأصل هذا المصدر من اللغة اليمنية يريد: وتكلم به العرب فقد أنشدوا لبعض بنى كلاب:

لقد طال ما ثبطتنى عن صحابتى وعن حوج قضاؤها من شفائيا

من قضيت قضاء[1]

وفى الكشاف: وفعال فى باب فعل كله فاش فى كلام فصحاء العرب لا يقولون غيره وهو مصدر كذب[2]

وأوثر هذا المصدر هنا دون التكذيب لمراعاة التماثل فى فواصل هذه السورة وللإشعار بأن تكذيبهم لآيات الله – تعالى – قد وصل الغاية فى قبحة وإفراطه وهو منصوب على أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله.

وبعد أن بين – عز وجل – أن فساد حالهم فى القوة العملية وفى القوة النظرية بلغ إلى أقصى الغايات وأعظم النهايات بين أن تفاصيل تلك الأحوال فى كميتها وكيفيتها معلومة له حيث إن علمه – عز وجل – شامل لكل شئ فقال: "وكل شئ أحصيناه كتابا" (سورة النبأ/٢٩).

ونصب "كل" على المفعولية لـ"أحصيناه" على طريقة الاشتغال بضميره أى وأحصينا كل شئ.

---

(١) المصدر السابق ١١/ ١٩.
(٢) تفسير الكشاف ٤/٦٨٩.

والإحصـــاء : حساب الأشياء لضبط عددها ضبطا محكما وأصله من لفظ الحصـــا واســتعمل فيه لأنهم كانوا يعتمدون على الحصا فى العد كما يعتمد بعض الناس الآن على الأصابع، فالإحصاء كناية عن الضبط والتحصيل.

وانتصب "كتابا" على المفعولية المطلقة لــ"احصيناه" والتقدير: إحصاء كتابة فهو مصدر بمعنى الكتابة وهو كناية عن شدة الضبط لأن الأمور المكتوبة مصونة عــن النســيان والإغفــال فباعتــبار كونـــه كناية عن الضبط جاء مفعولا مطلقا لــ"أحصينا".

وقـــال الجمـــل فى حاشــيته على تفسير الجلالين: قوله: "كتابا" فيه أوجه **أحدهمـــا:** أنـــه مصـــدر من معنى أحصيناه أى إحصاء فالتجوز فى نفس المصدر والـــتقدير: أحصيناه إحصاء وإنما عدل عن تلك اللفظة إلى هذه اللفظة لأن الكتابة هى فى النهاية فى قوة العلم ولهذا قال عليه السلام: "قيدوا العلم بالكتابة" فكأنه تعالى قال: وكل شئ أحصيناه إحصاء مساويا فى القوة والثبات والتأكيد للمكتوب فالمراد من قوله "كتابا" تأكيد ذلك الإحصاء والعلم وقال الإمام الفخر الرازى: وأعلم أن هذا الـــتأكيد إنما ورد على حسب ما يليق بإفهام أهل الظاهر فإن المكتوب يقبل الزوال وعلم الله – عز وجل – بالأشياء لا يقبل الزوال لأنه واجب لذاته.

والثانى: أنه مصدر لأحصينا لأنه فى معنى: كتبنا فالتجوز فى نفس الفعل أى وكل شئ فى هذا الكون قد أحصيناه إحصاء تاما بحيث لا يعزب منه شئ عن علمنا مهما كـــان صغيرا.(١) وهذا النظم الكريم: "وكل شئ ... الخ" اعتراض بين الجمل التى ســـيقت مســـاق التعـــليل وبيـــن جملة "فذوقوا... الخ" (سورة النبأ/٣٠) وفائدة هذا الإعـــتراض – والله العلم – إعلامهم بأن الله – عز وجل – لايخفى عليه شئ من

---

(١) راجع : مفاتيح الغيب ٢٠/١١ وحاشية الجمل على تفسير الجلالين ٤٧٤/٤.

أعمـــالهم فلا يدع شيئا من سيئاتهم إلا يحاسبهم عليه ما ذكر هنا وما لم يذكر كأنه قيــل: إنهــم كــانوا لايرجون حسابا وكذبوا بآياتنا وفعلوا مما عدا ذلك وكل ذلك محصـــى عندنا.[1] وبعد أن شرح – عز وجل – أحوال العقاب أولا وبين تفاصيل أفعالهم القبيحة أعاد ذكر العقاب فقال تعالى: "**فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا**" (سورة النبأ /٣٠).

والفاء فى قوله عز وجل – "فذوقوا" للتفريع والتسبب على ما تقدم من كون جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا.

ولمـــا غير أسلوب الخبر إلى الخطاب بعد أن كان جاريا بطريق الغيبة ولم يكن مضمون الخبر مما يجرى فى الدنيا فيظن أنه خطاب تهديد للمشركين تعين ان يكــون المفــرع قــولا محذوفا دل عليه فعل "ذوقوا" الذى لا يقال إلا يوم الجزاء فالتقدير: فيقال لهم ذوقوا إلى آخره ولهذا فليس فى ضمير الخطاب التفات فالمفرع بالفاء هو: فعل القول المحذوف.

والأمـــر فى "ذوقـــوا" مستعمل فى التوبيخ والتقريع وفرع على "فذوقوا" ما يزيد تنكيدهم وتحسيرهم بإعلامهم بأن الله – عز وجل – سيزيدهم عذابا فوق ماهم فيه.

والـــزيادة : ضم شئ إلى غيره من جنس واحد أو غرض واحد قال تعالى: "فزادتهم رجسا إلى رجسهم..." (سورة التوبة/١٢٥) وقال: "ولا تزد الظالمين إلا تبارا" (سورة نوح/٢٨) أى لا تزدهم على ما هم فيه من المساوئ إلا الإهلاك.

فالزيادة المنفية فى قوله تعالى: "فلن تزيدكم إلا عذابا" يجوز أن تكون زيادة نـــوع آخـــر مـــن عذاب يكون حاصلا لهم كما فى قوله تعالى: "زدناهم عذابا فوق

---

(١) التحرير والتنوير ٤١/٣٠.

العـــذاب" (سورة النحل/٨٨) ويجوز أن تكون زيادة من نوع ما هم فيه من العذاب بتكريره فى المستقبل.

والمعـــنى: فسنزيدكم عذابا زيادة مستمرة فى أزمنة المستقبل فصيغ التعبير عن هذا المعنى بهذا التركيب الدقيق إذ ابتدئ بنفى الزيادة بحرف تأييدالنفى وأردف الاستثناء المقتضى ثبوت نقيض حكم المستثنى منه للمستثنى فصارت دلالة الإستثناء على معنى: سنزيدكم عذابا مؤبدا.

وهذا من تأكيد الشئ بما يشبه ضده وهو أسلوب طريف من التأكيد إذ ليس فيه إعادة لفظ فإن زيادة العذاب تأكيد للعذاب الحاصل.

ولما كان المقصود الوعيد بزيادة العذاب فى المستقبل جئ فى أسلوب نفيه بحرف نفى المستقبل وهو "لن" المفيد تأكيد النسبة المنفية وهى ما دل عليه مجموع النفى والاستثناء فإن قيد تأبيد نفى الزيادة الذى يفيده حرف "لن" فى جانب المستثنى منه يسرى إلى إثبات زيادة العذاب فى جانب المستثنى فيكون معنى جملة الاستثناء. سنزيدكم عذابا أبدا وهو معنى الخلود فى العذاب.

وفى هـــذا الأســـلوب ابتداء مطمع بانتهاء مؤيس وذلك أشد حزنا وغما بما يوهمهـــم أن ما ألقوا فيه هو منتهى التعذيب حتى إذا ولج ذلك أسماعهم فخزنوا له أتبع بأنهم ينتظرهم عذاب آخر أشد فكان ذلك حزنا فوق حزن.

والخلاصة: ان هذه الآية دالة على المبالغة فى التعذيب من وجوه:

أحـــــدها: قوله تعالى: "فلن نزيدكم" وكلمة "لن" للتاكيد فى النفى.

وثـــانيها: أنه فى قوله عز وجل: "كانوا لايرجون حسابا" (سورة النبا/٢٧) ذكرهم بالمغايبة وفى قوله تعالى: "فذوقوا" ذكرهم على سبيل المشافهة وهذا يدل على كمال الغضب .

وثالـثها: أنـه تعالى عدد وجوه العقاب ثم حكم بأنه جزاء موافق لأعمالهم ثم عدد فضائحهم ثم قال "فذوقوا" فكأنه تعالى أفتى وأقام الدلائل ثم أعاد تلك الفتوى بعينها وذلك يدل على المبالغة فى التعذيب قال عليه الصلاة والسلام.

هـذه الآيـة أشـد ما فى القرآن على أهل النار كلما استغاثوا من نوع من العذاب أغيثوا بأشد منه[1]

فمـاهم فيـه فى لحظتهم تلك أهون مما يذوقونه فى كل لحظة آتية... إنهم ينتقـلون مـن عذاب إلى ما هو أشد منه حالا بعد حال ولحظة بعد لحظة فليبادروا بشرب ما بأيديهم قبل أن يشتد لهيب النار ويزداد غليانا.

ولما ذكر – سبحانه – وعيد الكفار أتبعه بوعد الأخيار فقال عز وجل: "**إن للتقين مفازا. حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابـا. جزاء من ربك عطاء حسابا.**" (سورة النبأ/٣١/٣٦) جرى هذا الانتقال عـلى عـادة القرآن الكريم فى تعقيب الإنذار للمنذرين بتبشير من هم أهل للتبشير فانـتقل مـن تـرهيب الكافرين بما سيلاقونه إلى ترغيب المتقين فيما أعد لهم فى الآخرة من كرامة ومن سلامة مما وقع فيه أهل الشرك.

فالجملة متصلة بجملة "إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا" وهى مستأنفة استئنافا ابتدائيا بمناسبة مقتضى الانتقال.

وافتـتاحها بحـرف "إن" لـلدلالة على الإهتمام بالخبر لئلا يشك فيه أحد.

والمقصـود مـن "المتقين": المؤمنون الذين آمنوا بالنبى – صلى الله عليه وسلم – واتبعوا ما أمرهم به واجتنبوا ما نهاهم عنه لأنهم المقصودون من مقابلتهم بالطاغين المشركين.

---

(١) راجـع : مفاتيح الغيب ٢٠/١١ وتفسير القرآن العظيم لأبن كثير ٣٣١/٤ والتحرير والتنوير ٤٢/٣٠ والتفسير القرآنى للقرآن ١٤٢٣/٨ والتفسير الوسيط للقرآن الكريم ٢٥٧/١٥.

و "المفاز" مكان الفوز وهو الظفر بالخير ونيل المطلوب. ويجوز أن يكون مصدرا ميميا بمعنى الفوز وتنوينه للتعظيم وتقديم خبر "إن" على اسمها للاهتمام به تنويها بالمتقين والمراد بالمفاز: الجنة ونعيمها و أوثرت كلمة "مغازا" على كلمة "الجنة" لأن فى اشتقاقه – ولله العلم – إثارة الندامة فى نفوس المخاطبين بقوله تعالى "فتأتون أفواجا" وبقوله عز وجل: "فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا".

وأبدل "حدائق" من "مفازا" بدل بعض من كل باعتبار أنه بعض من مكان الفوز أو بدل بدل اشتمال باعتبار معنى الفوز.

والحدائق : جمع حديقة وهى الجنة من النخيل والأشجار ذوات الساق المحوطة بحائط أو جدار أو حضائر من قولهم أحدقوا به أى أحاطوا به. والأعناب: جمع عنب وهو اسم يطلق على شجرة الكرم ويطلق على ثمرها والتنكير فى قوله تعالى "وأعنابا" يدل على تعظيم حال تلك الأعناب، وفى تخصيصها بالذكر دلالة على أن الأعناب من أعظم الفواكه وأحبها إلى النفوس ولأنها كما تبدو – فى الحياة الدنيا – طيبة الثمر دانية القطوف ممتدة الظلال.

و "الكواعب" جمع كاعب وهى الفتاة التى وصلت إلى سن البلوغ وسميت بذلك أو ووصفت بذلك لأنها فى تلك السن يتكعب ثدياها أى صارا كالكعب أى يستديران مع إرتفاع.

ولما كان كاعب وصفا خاصا بالمرأة لم تلحقه هاء التأنيث وجمع على فواعل. و "الأتراب" جمع ترب – بكسر التاء وسكون الراء – وهو المساوى غيره فى السن واكثر ما يطلق هذا اللفظ على الإناث. قيل هو مشتق من التراب لأنه حين يولد يقع على التراب مثل الآخر أو لأن الترب ينشأ مع لدته فى سن الصبا يلعب بالتراب.

وقيـــل هـــو المشتق من الترائب تشبيها فى التساوى بالترائب وهى ضلوع الصدر فإنها متساوية فهؤلاء الكواعب متماثلان فى الخلقة حسنا وبهاء وشبابا وهذا يعنى أنهن خلقن على صورة من الكمال ليس بعدها غاية حتى يقع تفاوت فيها.

و"الكـــأس" إنـــاء معد لشرب الخمر وهو اسم مؤنث تكون من زجاج ومن فضـــة ومن ذهب ولم أقف على أن لها شكلا معينا يميزها عن القدح وعن الكوب وعـــن الكـــوز ولم أجد فيما توفر لى من قواميس اللغة التعريفة بالكأس بأنها: إناء الخمر وإنها الأناء مادام فيه الشراب.

وهذا يقتضى أنها لا تختص بصنف من الآنية. وقد يطلقون على الخمر اسم الكـــأس وأريـــد بالكأس الجنس إذ المعنى كؤسا وعدل عن صيغة الجمع لأن كأسا بالإفراد أخف من أكؤس وكؤوس ولأن هذا المركب جرى مجرى المثل كما سيأتى.

و"دهـــاق": اسم مصدر دهق من باب جعل أو اسم مصدر أدهق ولكونه فى الأصل مصدرا لم يقترن بعلامة تأنيث. والدهق والإدهاق: ملء الإناء من كثرة ما صب فيه. ووصف الكأس بالدهق من إطلاق المصدر على المفعول كالخلق بمعنى المخلوق فإن الكأس مدهقة لا داهقة ومركب "كأس دهاق" يجرى مجرى المثل قال عكـــرمة: قـــال ابن عباس: سمعت أبى فى الجاهلية يقول: اسقنا كأسا دهاقا ولذلك أفـــرد "كأسا" ومعناه مملوءة خمرا أى دون تقتير لأن الخمر كانت عزيزة فلايكيل الحانوى للشارب إلا بمقدار فإذا كانت الكأس ملأى كان ذلك أسر للشارب وقال أبو هريرة وسعيد بن جبير ومجاهد "دهاقا" أى متتابعة وقال الواحدى: وأصل هذا القول مـــن قـــول العـــرب: أدهقت الحجارة إدهاقا وهو شدة تلازمها ودخول بعضها فى بعـــض، وقـــال عكرمة "دهاقا" أى صافية والدهاق على هذا القول يجوز أن يكون جمـــع داهق وهو خشبتان يعصر بهما والمراد بالكأس: الخمر وقال الضحاك: كل

كـــأس فى القـــرآن فهـــو خمر والتقدير: وخمرا ذات دهاق أى عصرت وصفيت بالدهاق.[١]

والضمير المجرور فى قوله تعالى: "لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا" يجوز أن يكـــون عـــائدا إلى الكـــأس فتكون "فى" للظرفية المجازية بتشبيه تناول الندامى للشـــراب من الكأس بحلولهم فى الكأس على طريق الاستعارة المكنية وحرف "فى" تخييل أو تكون "فى" للتعليل كما فى الحديث: "دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمهـــا ولـــم تدعها تأكل من خشاش الأرض"[٢] أى من أجل هرة. والمعنى: لا يســـمعون لغـــوا ولا كذابـــا مـــنها أو عـــندها فتكون الجملة صفة ثانية لـــ "كأسا" والمقصـــود منها: أن خمر الجنة سليمة مما تسببه خمر الدنيا من آثار العربدة من هذيـــان وكذب وسباب واللغو والكذب من العيوب التى تعرض لمن تدب الخمر فى رؤوســـهم أى فأهل الجنة ينعمون بلذة السكر المعروفة فى الدنيا قبل تحريم الخمر ولم يتغير عقلهم ولم يتكلموا بلغو فلا تأتى الخمر على كما لا تهم النفسية كما تأتى عليها خمر الدنيا.

ويجوز أن يعود ضمير "فيها" إلى "مفازا" باعتبار تأويله بالجنة لوقوعه فى مقابـــلة "جهنم" من قوله عز-وجل- "إن جهنم كانت مرصادا" أو لأنه أبدل "حدائق" مـــن "مفازا" وهذا المعنى نشأ عن أسلوب نظم الكلام حيث قدم "حدائق وأعنابا ... الخ وأخر "وكأسا دهاقا" حتى إذا جاء ضمير "فيها" بعد ذلك جاز إرجاعه إلى الكأس

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٢/١١ والتحرير والتنوير ٤٥/٣٠.

(٢) الجـــامع الصـــحيح للإمام البخارى - كتاب بدء الخلق - الباب السادس عشر ٤٤٧/٢ ورقم الحديـــث ٣٣١٨ ورواه الإمـــام أحمد فى مسندة بلفظ: "دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمهـــا ولـــم تسقها ولم ترسلها فتأكل من خشاش الأرض" كما رواه بألفاظ أخرى فنيراجع المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢٦١/٢ و ٢٦٩ و ٤٥ و ٤٦٧ و ٥٠١ و ٥٠٧.

والى المفاز وهذا من بديع الإيجاز مع وفرة المعانى أى لا يسمعون فى الجنة الكلام السافل ولا الكذب.

فلما أحاط بأهل جهنم أشد الأذى بجميع حواسهم من جراء حرق النار وسقيهم الحميم والغساق لينال العذاب بواطنهم كما نال ظاهر أجسادهم كذلك نفى عن أهل الجنة أقل الأذى وهو أذى سماع ما يكرهه الناس فإن ذلك أقل الأذى.

وكنى عن انتفاء اللغو والكذاب عن شاربى خمر الجنة بأنهم لا يسمعون اللغو والكذاب فيها لأنه لو كان فيها لغو وكذب لسمعوه.

واللغو: الكلام الباطل والهذيان ومسقط القول الذى لا يورد عن روية ولا تفكير والكذاب: تقدم معناه عند قوله تعالى: "وكذبوا بآياتنا كذابا" وقرأ الجمهور "كذابا" هنا مشددا وقرأة الكسائى هنا بتخفيف الذال. ولعلك تقول متسائلا: "الكذاب" بالتشديد يفيد المبالغة فوروده فى قوله تعالى "وكذبوا بأياتنا كذابا" (سورة النبأ/٢٨) مناسب لأنه يفيد المبالغة فى وصفهم بالكذب أما وروده هنا فغير لائق لأن قوله تعالى "لايسمعون فيها لغوا ولا كذابا" (سورة النبأ/٣٥) يفيد أنهم لا يسمعون الكذب العظيم وهذا لا ينفى أنهم يسمعون الكذب القليل وليس مقصود الآية الكريمة لايسمعون الكذب العظيم وهذا لا ينفى أنهم يسمعون الكذب القليل وليس مقصود الآية الكريمة ذلك بل المقصود – والله العلم – المبالغة فى أنهم لا يسمعون الكذب البتة والحاصل أن هذا اللفظ يفيد نفى المبالغة واللائق بالآية المبالغة فى النفى. والجواب عن ذلك نقول:

إن الكسائى قرأ الأول بالتشديد والثانى بالتخفيف ولعل غرضه ما قرر فى هذا السؤال السابق لأن قراءة التخفيف ههنا تفيد أنهم لا يسمعون الكذب أصلا لأن الكذاب بالتخفيف والكذب واحد لأن أباعلى الفارسى قال: كذاب مصدر كذب ككتاب مصدر كتب فإذا كان كذلك كانت القراءة بالتخفيف تفيد المبالغة فى النفى وقراءة التشديد فى الأول تفيد المبالغة فى الثبوت فيحصل المقصود من هذه القراءة فى

الموضعين على أكمل الوجوه فإن أخذنا بقراءة الكسائى فقد زال السؤال، وإن أخذنا بقـــراءة التشـــديد فى الموضعين وهى قراءة الجمهور فالعذر عنه أن قوله تعالى: "لايسمعون فيها لغوا ولا كذابا" إشارة إلى ما تقدم من قوله عز وجل: "وكذبوا بآياتنا كذابـــا" والمعـــنى أن هـــؤلاء الســـعداء لا يسمعون كلامهم المشوش الباطل الفاسد والحاصـــل أن الـــنعم الواصـــلة اليهم تكون خالية عن زحمة أعدائهم وعن سماع كلامهم الفاسد وأقوالهم الكاذبة الباطلة.[١]

وقولـــه – عـــز وجل – "جزاء من ربك عطاء حسابا" بيان لمظاهر فضله ومنـــنه عـــلى هؤلاء المتقين. وقوله تعالى "جزاء" منصوب على الحال من "مفازا" وأصـــل الجـــزاء مصدر جزى ويطلق على المجازى به من إطلاق المصدر على المفعول فالجزاء هنا المجازى به وهو الحدائق والجنات والكواعب والكأس.

والجـــزاء: إعطـــاء شئ عوضا على عمل. ويجوز أن يجعل الجزاء على أصـــل معـــناه المصدرى وينتصب على المفعول المطلق الآتى بدلا من فعل مقدر والتقدير: جزينا المتقين.

و "من" ابتدائية أى صادرا من لدن الله – عز وجل – وذلك تنويه بكرم هذا الجـــزاء وعظم شأنه. وإضافة "رب" إلى ضمير المخاطبين مرادا به النبى – صلى الله عـــليه وســـلم – للأيماء إلى أن جزاء المتقين بذلك يشتمل على إكرام النبى – صـــلى الله عـــليه وســـلم – لأن إسداء هذه النعم إلى المتقين كان لأجل إيمانهم به وعمـــلهم بما هداهم إليه نفيه تكريم للنبى – صلى الله عليه وسلم – وأنه من فضل ربـــه عليه كان هذا العطاء الذى وسع المؤمنين جميعا ووصف الجزاء بـــ"عطاء" وهو اسم لما يعطى أى يتفضل به بدون عوض للإشارة إلى أن ما جوزوا به أوفر

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٢/١١.

ممـــا عمـــلوه فكان ما ذكر للمتقين من المفاز وما فيه جزاء وعطاء كرما من الله تعالى وكرامة لهذه الأمة إذا جعل ثوابها أضعافا.

ولعـــلك تتساءل وتقول: إن الله عز وجل جعل الشئ الواحد جزاء وعطاء وذلـــك محال لأن كونه جزاء يستدعى ثبوت الاستحقاق وكونه عطاء يستدعى عدم الاستحقاق والجمع بينهما متناف؟

ونقول فى الإجابة عن ذلك: إن ذلك الإستحقاق إنما ثبت بحكم الوعد لا من حيث إن الفعل (العمل) يوجب الثواب على الله – عز وجل – فذلك نظرا إلى الوعد المـــترتب على ذلك الفعل يكون جزاء ونظرا إلى أنه لا يجب على الله تعالى لأحد شئ يكون عطاء.[1]

وفى قوله تعالى: "حسابا" وجوه:

الأول : أن يكـــون اسم مصدر "حسب" (بفتح السين) يحسب (بضمها) إذا عدّ أشياء وجميـــع مـــا تصـــرف من مادة حسب متفرع عن معنى العد وتقدير المقدار فوقع "حســـابا" صـــفة "جزاء" أى هو جزاء كثير مقدر على أعمالهم والتنوين فيه للتكثير والوصـــف باســـم المصدر للمبالغة وهو بمعنى المفعول أى محسوبا مقدرا بحسب أعمـــالهم وهذا مقابل ما وقع فى جزاء الطاغين من قوله "جزاء وفاقا" (سورة النبأ/ ٢٦) وهذا الحساب مجمل هنا يبينه قوله تعالى: "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها" (سورة الأنعام/١٦٠) وقوله عز وجل "مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حـــبه أنبـــتت ســـبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة" (سورة البقرة/٢٦١) وليس هذا الحســـاب للاحتراز عن تجاوز الحد المعين فذلك استعمال آخر كما فى قوله تعالى:

---

(١) المصدر السابق/٢٣.

"إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب" (سورة الزمر/١٠) ولكل آية مقامها الذى يجرى عليه استعمال كلماتها فلا تعارض بين الأيتين.

الثانى: أن يكون "حسابا" اسم مصدر "أحسبه" إذا أعطاه ما كفاه فهو بمعنى "إحسابا" فإن الكفاية يطلق عليها "حسب" بسكون السين فإنه إذا أعطاه ما كفاه قال: حسبى.

ومنه : حسبى من سؤالى علمه بحالى أى كفانى من سؤالى ومنه قول الشاعر:

فأولى جميلا وأعطى حسابا   فلما حللت به ضمنى

أى أعطى ما كفى.

الثالث: أن يكون بمعنى "كثيرا" ومنه قولهم: أحسبت فلانا أى أكثرت له وذلك كما فى قول أمرأة من بنى قشير:

ونحسبه إن كان ليس بجائع[١]   ونقفى وليد الحى إن كان جائعا

الرابع: أنه سبحانه يوصل الثواب الذى هو الجزاء اليهم ويوصل التفضل الذى يكون زائدا على الجزاء اليهم ثم قال "حسابا" ثم يتميز الجزاء عن العطاء حال الحساب.

الخامس: أنه تعالى لما ذكر فى وعيد أهل النار "جزاء وفاقا" ذكر فى وعد أهل الجنة جزاء (عطاء حسابا) أى راعيت فى ثواب أعمالهم الحساب لئلا يقع فى ثواب أعمالكم ونقصان وتقصير والله أعلم بمراده.[٢]

ونلمح هنا ظاهرة الأناقة فى التعبير والموسيقى فى التقسيم بين "جزاء" و "عطاء" كما نلمحها فى الإيقاع المشدود فى الفواصل كلها على وجه التقريب.

---

(١) نقفيه : أى نؤثره بالقفية وهى ما يؤثر الضيف والصبى.

(٢) راجع : جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى ١٤/٣٠ ومفاتيح الغيب ٢٣/١١ والتحرير والتنوير ٤٨/٣٠ ودرة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافى / ٥١٦ و ٥١٧ وملاك

هذا : وفى قوله تعالى "حسابا" إشارة أخرى إلى أن هذا العطاء ذو صفتين: فأولا هو عطاء بحساب حسب منازل المتقين عند الله – عز وجل – وحسب درجاتهم من التقوى وثانيا هو عطاء يكفى كل من نال منه فلا تبقى له حاجة يشتهيها بعد هذا العطاء.

ومعلوم أن نعيم الجنة وإن استجاب لكل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين فإنه يختلف بحسب مقام المتنعمين به حيث تقبلهم لهذا النعيم واتساع قواهم له وهذا التقبل وهذا الاتساع يتبع مقام المتنعم ومنزلته عند الله – عز وجل – ونضرب لذلك مثلا بمائدة ممدودة عليها كل ما تشتهى الأنفس من طيبات وحولها أعداد من المدعويين اليها فكل ينال منها قدر طاقتة وشهوته وإن كانوا جميعا قد نالوا ما يشتهون منها ولكن شتان بين من أخذ لقيمات وبين من قطف من كل ما عليها من ثمار!!

وتكملة المشاهد اليوم الذى يتم فيه ذلك كله والذى يتساءل عنه المتسائلون ويختلف فيه المختلفون يجئ المشهد الختامى فى السورة حيث يقف جبريل – عليه السلام – والملائكة صفا بين يدى الرحمن خاشعين لا يتكلمون – إلا من أذن له الرحمن – فى الموقف المهيب الجليل: "**رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء أتخذ إلى ربه مآبا. إنا انذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا**" (سورة النبأ ٣٧–٤٠).

التأويل القاطع بذوى الإلحاد والتعطيل للعلامة أحمد الغرناطى /١١٣٣ و ١١٣٤ وبصائر ذوى التمييز /٤٩٨ وروح المعانى ٢١٩/١٥.

قوله – عز وجل – "رب السماوات ...(و)... الرحمن" فيه ثلاثة أوجه من القراءة الرفع فيهما وهو قراءة ابن كثير ونافع وأبى عمرو. والجر فيهما وهو قراءة عاصـــم وعبد الله بن عامر والجر فى الأول مع الرفع فى الثانى وهو قراءة حمزة الكسائى.

فأ ما قراءة رفع الأسمين ففيها وجوه منها: أن يكون "رب السماوات" خبر لمبـــتدأ محـــذوف تقديره "هو" يعود على قوله تعالى "من ربك" على طريقة حذف المســـند إليه حذفا سماه السكاكى حذفا لاتباع الاستعمال الوارد على تركه أى: فى المقـــام الذى يجرى استعمال البلغاء فيه على حذف المسند إليه وذلك إذا جرى فى الكـــلام وصف ونحوه لموصوف ثم ورد ما يصلح أن يكون خبرا عنه أو أن يكون نعتا له فيختار المتكلم أن يجعله خبرا لا نعتا فيقدر المنعوت ويأتى بخبر عنه وهو ما يسمى بالنعت المقطوع.

والمعنى: إن ربك هو ربهم لأنه رب السماوات والأرض وما بينهما ولكن المشـــركين عـــبدوا غيـــره جهلا وكفرا لنعمته. و "الرحمن" خبر ثان ثم استؤنف "لايملكون" وهناك وجوه أخرى[١].

وأما قراءة جر الأسمين فهى جارية على أن "رب السماوات" نعت لـــ"ربك" مـــن قوله عز وجل "جزاء من ربك" و "الرحمن" نعت ثان أو على أساس أن قوله تعالى "رب السماوات..." بدل من لفظ "ربك" وفى إبداله تعظيم لا يخفى وقوله عز وجل "الرحمن" صفة لـــ "ربك" أو لـــ"رب السماوات" على الأصح عن المحققين من جواز وصف المضاف إلى ذى اللام بالمعرف بها.[٢]

وأما وجه جر الأول ورفع الثانى: فعلى أساس أن الأول بدل من "ربك" فى قوله عز وجل: "جزاء من ربك" وأن الثانى مرفوع بكونه مبتدأ وخيره "لايملكون".

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٤/١١.
(٢) تفسير البحر المحيط ٤١٥/٨ وروح المعانى ٢١٩/٣٠.

و "الـــرب" المــــالك المتصـــرف بالـــتدبير ورعى الرفق والرحمة والمراد بـــــ"الســـماوات والأرض وما بينهما" مسماها مع ما فيها من الموجودات لأن اسم المكـــان قد يراد به ساكنه كما فى قوله تعالى: فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها..." (سورة الحج/٤٥) فإن الظلم من صفات سكان القرية لاصـــفة لذاتها والخواء على عروشها من أحوال ذات القرية لا من أحوال سكانها فكان إطلاق القرية مرادا به – ولله العلم – كلا المعنيين.

والمـــراد بما بين السماوات والأرض: ما على الأرض من كائنات وما فى السماوات من الملائكة ومالا يعلمه بالتفصيل إلا الله – عز وجل – وما فى الجو من المكونـــات حيـــة وغيرها من أسحبة وأمطار وموجودات سابحة فى الهواء. و"ما" موصـــولة وهى من صيغ العموم وقد استفيد من ذلك تعميم ربوبيته – عز وجل – على جميع المصنوعات.

وأتـــبع وصـــف "رب الســـماوات" بذكر اسم من أسمائه الحسنى وهو اسم "الرحمن" وخص بالذكر دون غيره من الأسماء الحسنى لأن فى معناه إيماء إلى أن مـــا يفيضـــه من خير على المتقين فى الجنة هو عطاء رحمان بهم وفى ذكر هذه الصـــفة الجليلة تعريض بالمشركين إذ أنكروا اسم الرحمن الوارد فى القرآن الكريم كمـــا حكى الله – عز وجل – عنهم بقوله: "وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن..." (سورة الفرقان/٦٠).

فهذا الجزاء العظيم للمتقين هو كائن من ربك الذى هو رب أهل السماوات وأهـــل الأرض ورب مـــا بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا هو، وهو – سبحانه – صاحب الرحمة الواسعة العظيمة التى لا تقاربها رحمة.

وقوـــله تعـــالى: "لا يملكون منه خطابا" مقرر ومؤكد لما قبله من كونه – تعـــالى – هـــو رب كـــل شـــئ ويجوز أن يكون حالا من "ما بينهما" لأن ما بين الســـماوات والأرض يشمل ما فى ذلك من المخلوقات العاقلة أو المزعوم لها العقل

مـــثل الأصنام فيتوهم أن بين تلك المخلوقات من يستطيع خطاب الله – عز وجل – ومراجعته.

ويجـــوز أن يكـــون استئنافا ابتدائيا لإبطال مزاعم المشركين أو للإحتراس لدفع توهم أن ما تشعر به صلة "رب" من الرفق بالمربوبين فى تدبير شئونهم يسيغ إقدامهم على خطاب الرب جل وعلا.

فأهل السماوات والأرض وما بينهما خاضعون ومربوبون لله – عز وجل – الواحـــد القهار الذى لا يقدر أحد منهم – كائنا من كان – أن يخاطبه إلا بإذنه ولا يملك أن يفعل ذلك إلا بمشيئته. والملك فى قوله تعالى: "لا يملكون منه خطابا" معناه – والله العـــلم – القدرة والاستطاعة لأن المالك يتصرف فيما يملكه حسب رغبته لا رغبة غيره فلا يحتاج إلى إذن غيره فنفى الملك نفى للاستطاعة وقوله – عز وجل – "مـــنه" حـــال من "خطابا" وأصله صفة لـــ"خطابا" فلما تقدم على موصوفه صار حالا.

وحرف "من" اتصالية وهى ضرب من الابتدائية فهى ابتدائية مجازية كقوله تعالى: إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ..." (سورة الممتحـــنة/٤) فـــ"من" الأولى اتصالية والثانية لتوكيد النص ومنه قولهم: لست منك ولست منى وقوله تعالى: "ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شئ" (سورة آل عمران/ ٢٨) أى لا يستطيعون خطابا يبلغونه إلى الله – عز وجل.

وضـــمير "لا يملكون" عائد إلى "ما" الموصولة فى قوله "وما بينهما" لأنها صـــادقة على جميعهم والخطاب: الكلام الموجه لحاضر لدى المتكلم أو كالحاضر المتضمن إخبارا أو طلبا أو إنشاء مدح أو ذم وفعل "يملكون" يعم لوقوعه فى سياق النفى كما تعم النكرة المنفية.

وخطابا عام أيضا وكلاهما من العام المخصوص بمخصص منفصل كقوله تعالى عقب هذه الآية "لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا" وقوله تعالى "مـن ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه" (سورة البقرة/٢٥٥) وقوله سبحانه "يوم يأت لا تكـلم نفـس إلا بإذنـه فمـنهم شقى وسعيد". (سورة هود/١٠٥) وقوله عز وجل "ولايشفعون إلا لمن ارتضى" (سورة الأنبياء/٢٨).

والغـرض مـن ذكـر هـذا – والله العلم – إبطال اعتذار المشركين حين استشـعروا شـفاعة عـبادتهم الأصنام التى شهر القرآن الكريم بها فقالوا: "هؤلاء شفعاؤنا عند الله..." (سورة يونس/١٨) وقالوا: "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ..." (سـورة الزمر/٣) وفى هذا النظم الكريم "لا يملكون منه خطابا" إشارة إلى أن هـذا النعيم الذى ينعم به المتقون إنما هو من رحمة الرحمن الذى أنزلهم منها هذا المنزل الكريم ولو ساقهم الله – عز وجل – إلى النار لما كان لهم عليه – سبحانه – حجة لأن أحدا فى موقف الحساب والجزاء لا يستطيع أن يسأل الله – تعالى – عن المصير الذى هو صائر إليه إنه لا يملك خطابا ولا مراجعه.[1]

ولما ذكر – سبحانه أن أحد من الخلق لا يمكنه أن يخاطب الله – عز وجل – فى شـئ أو يطالـبه بشئ قرر هذا المعنى وأكده فقال تعالى: **"يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا".**

"يـوم" ظـرف متعلق بقوله – تعالى– "يملكون منه خطابا" أى لايتكلم أحد يؤمئذ إلا من أذن له الله عز وجل. وجملة "لايتكلمون" مؤكدة لجملة "لا يملكون منه خطابا أعيدت بمعناها لتقرير المعنى إذ كان المقام حقيقا فالتقرير لقصد التوصل به إلى الدلالة على إبطال زعم المشركين شفاعة أصنامهم لهم عند الله – عز وجل –

---

(١) التفسير القرآنى للقرآن /١٤٢٦ والتحرير والتنوير ٣٠/٥٠.

وهى دلالة بطريق الفحوص فإنه إذا نفى تكلمهم بدون إذن نفت شفاعتهم إذ الشفاعة كـــلام من له وجاهة وقبول عند سامعه. وليبنى عليها الاستئناف لبعد ما بين المثنى المستثنى منه بمتعلقات "يملكون" من مجرور ومفعول به وظرف وجملة أضيف لها. وضمير "يتكلمون" عائد إلى ما عاد إليه ضمير "يملكون".

والقول في تخصيص "لايتكلمون" مثل القول فى تخصيص "لا يملكون منه خطابا" وقوله "تعالى "إلا من أذن له الرحمن" استثناء من ضمير "لا يتكلمون" وإذ قد كان مؤكد الضمير "لا يملكون" فالإستثناء منه يفهم الاستثناء من المؤكد به.

والقيام: الوقوف وهو حالة الاستعداد للعمل الجد وهو أحوال العبودية الحق التى لاتستحق إلا لله تعالى وفى الحديث: "من سره أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ معقدة من النار[1] أى لأن ذلك من الكبرياء المختصة بالله تعالى.

والروح: اختلف فى المراد منه اختلافا أثاره عطف الملائكة عليه فقيل إنه مـــلك أعظـــم من السماوات والجبال وقيل: هو ملك من أعظم الملائكة خلقا وقيل: خلق أعظم من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين.

وقيل: هو ملك ما خلق الله – عز وجل – بعد العرش خلقا أعظم منه وقيل: جـــند مـــن جـــنود الله – تعالى – ليسوا ملائكة لهم رؤوس وأيد وأرجل وقيل: هم أشـــراف الملائكة وقيل: هم حفظه الملائكة. وقيل: ملك موكل على الأرواح وقيل: القـــرآن الكريم وقيامه مجاز عن ظهور آثاره الكائنة عن تصديقه أو تكذيبه وقيل: أرواح بـــنى آدم وقيـــل: هـــو جبريل – عليه السلام – وهو الذى نميل إليه – لأن القـــرآن الكريم دل على أن هذا الإسم اسم جبريل – عليه السلام – وثبت أن القيام صحيح من جبريل والكلام صحيح منه ويصح أن يؤذن له فكيف يصرف هذا الإسم

([1]) راجع : الباب الثالث عشر من كتاب الأدب فى صحيح الترمذى.

عنه إلى خلق لا نعرفه أو إلى القرآن الكريم الذى لا يصح وصفه بالقيام وتخصيص جبريل – عليه السلام – بالذكر قبل ذكر الملائكة المعطوف عليه لتشريف قدره بابلاغ الشريعة. وهناك أقوال كثيرة فى بيان المراد بـ"الروح"[1] واللام لتعريف الجنس: فالمفرد معها والجمع سواء والمعنى: يوم تحضر الأرواح لتودع فى أجسادها وعليه يكون فعل "يقوم" مستعملا فى حقيقته ومجازه. و "الملائكة" عطف على "الروح" أى ويقوم الملائكة صفا.

والصف اسم للأشياء الكائنة فى مكان يجانب بعضها بعضا كالخط وهو تسمية بالمصدر من إطلاق المصدر على اسم الفاعل وأصله للمبالغة ثم صار اسما. وإنما يعطف الناس فى المقامات التى يكون فيها أمر عظيم فصف الملائكة تعظيم لله – عز وجل – وخضوع له سبحانه.

والإذن : اسم للكلام الذى يفيد إباحة فعل للمأذون وهو مشتق من: أذن له إذا استمع إليه قال تعالى: "وأذنت لربها وحقت" (سورة الانشقاق/ ٢ و ٥) أى استمعت وأطاعت لإرادة الله – عز وجل – و "أذن" فعل مشتق من اسم الأذن: وهى جارحة السمع فأصل معنى أذن له: أمال أذنه أى سمعه إليه يقال: أذن يأذن أذنا كفرح ثم استعمل فى لازم السمع وهو الرضى بالمسموع فصار أذن بمعنى: رضى بما يطلب منه أو ما شأنه أن يطلب منه وأباح فعله ومصدره إذن بكسر الهمزة وسكون الذال فكأن اختلاف صيغة المصدرين لقصد التفرقة بين المعنيين.

ومتعلق "أذن" محذوف دل عليه "لا يتكلمون" أى من أذن له فى الكلام. ومعنى أذن الرحمان: أن من يريد التكلم لا يستطيعه أو تعتريه رهبة فلا يقدم على

---

(١) راجع : جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى ١٥/٣٠ وتفسير الكشاف ١٧٩/٤ والتفسير الكبير ٢٥/١١ وتفسير الخازن ومعه تفسير البغوى ٣٥٥/٦ والجامع لأحكام القرآن ١٨٦/١٩ و ١٨٧ وتفسير البحر المحيط ٤١٦/٨ وروح المعانى ٢٢٠/١٥ وحاشية الشهاب ٣١١/٨.

الكـــلام حـــتى يســـتأذن الله فـــأذن له وإنما يستأذنه إذا ألهمه الله - عز وجل - للاستئذان فإن الإلهام إذن عند أهل المكاشفات فى العامل الأخروى فإذا ألقى الله - عـــز وجل - فى النفس أن يستأذن استأذن الله فأذن له كما ورد فى حديث الشفاعة من إحجام الأنبياء عن الاستشفاع للناس حتى يأتوا محمدا - صلى الله عليه وسلم - قـــال فى الحديـــث: "فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجدا لربى - عز وجل - ثم يفـــتح الله على من محامد وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلى ثم يقول: أرفـــع رأســـك واشـــفع تشفع" وقد أشار إلى هذا قوله تعالى "ولا يشفعون إلا لمن ارتضـــى" (سورة الانبياء/٢٨) أى لمن علموا أن الله - عز وجل - ارتضى قبول الشـــفاعة فيه وهم يعلمون ذلك بإلهام هو من قبيل الوحى لأن الإلهام فى ذلك العالم لا يعتريه الخطأ.

وجمـــلة "وقال صوابا" يجوز أن تكون فى موضع الحال من اسم الموصول أى وقـــد قـــال المـــأذون له فى الكلام صوابا أى بإذن الله له فى الكلام إذا علم أنه سيتكلم بما يرضى الله.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة "أذن له الرحمن" أى وإلا من قال صوابا فعـــلم أن مـــن لا يقول الصواب لا يؤذن له وفعل "وقال صوابا" مستعمل فى معنى المضـــارع أى ويقول صوابا فعبر عنه بالماضى لإفادة تحقق ذلك أى فى علم الله عز وجل.

وإطلاق صفة "الرحمن" على مقام الجلالة إيماء إلى أن إذن الله - عز وجل - لمـــن يتكـــلم فى الكـــلام أثر من آثار رحمته لأنه أذن فيما يحصل به نفع لأهل المحشر من شفاعة أو استغفار.[١]

([١]) تفسير التحرير والتنوير ٥٣/٣٠.

وبعـــد أن قـــرر – سبحانه – أحوال المكلفين فى درجات الثواب والعقاب وقـــرر عظمة يوم القيامة قال – عز وجل – : "ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا".

فهـــو اســـتئناف ابتدائى كالخلاصة لما تقدم من وعيد ووعد وإنذار وتبشير ســـيق مساق التنوية بـــ"يوم الفصل" الذى ابتدئ الكلام عليه من قوله تعالى "إن يوم الفصل كان ميقاتا" والمقصود التنويه بعظيم ما يقع فيه من الجزاء بالثواب والعقاب وهو نتيجة أعمال الناس من يوم وجود الإنسان فى الأرض.

فوصف اليوم بالحق يجوز أن يراد به الثابت الواقع. ويجوز أن يراد بالحق مـــا قابل الباطل أى العدل وفصل القضاء فيكون وصف اليوم به على وجه المجاز العقلى إذ الحق يقع فيه واليوم ظرف له قال تعالى: "يوم القيامة يفصل بينكم" (سورة الممتحـــنة/٣) ويجـــوز أن الحق بمعنى الحقيقة بمسمى اليوم لأنه شاع إطلاق اسم اليوم على اليوم الذى يكون فيه نصر قبيلة على أخرى مثل: يوم حليمة ويوم بعاث والمعـــنى: ذلك اليوم الذى يحق له أن يقال: يوم وليس كأيام انتصار الناس بعضهم على بعض فى الدنيا فيكون كقوله تعالى: "ذلك يوم التغابن" (سورة التغابن/٩) فهو يـــوم انتقال الله – عز وجل – من أعدائه الذين كفروا نعمته وأشركوا به عبيده فى الإلهية ويكون وصف الحق بمثل المعنى الذى فى قوله تعالى: "الذين آتيناهم الكتاب يتـــلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به" (سورة البقرة/١٢١) أى التلاوة الحقيقية باسم الـــتلاوة وهى التلاوة بفهم معانى المتلو وأغراضه والإشارة بقوله تعالى: "ذلك" إلى اليوم المتقدم فى قوله تعالى "إن يوم الفصل كان ميقاتا" ومفاد اسم الإشارة فى مثل هذا المقام – والله العلم – التنبيه على أن المشار إليه حقيق بما سيوصف به بسبب ما ســـبق من حكاية شؤنه كما فى قوله تعالى "أولئك على هدى من ربهم..." بعد قوله تعالى "هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب... وبالآخرة هم يوقنون" (سورة البقرة/٢

-٥)[1] فلأجـــل جميع ما وصف به "يوم الفصل" كان حقيقا بأن يوصف بأنه "اليوم الحـــق" ومـــا تفـــرع عن ذلك من قوله "فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا" وما فى اسم الإشـــارة مـــن معـــنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه فللإيذان بعلو درجته وبعد منزلته فى الهول والفخامة. ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى "اليوم الحق" أو هو الخبر و "اليوم" بدل أو عطف بيان.

وتعـــريف "اليـــوم" باللام للدلالة على معنى الكمال أى هو الأعظم من بين مايعده الناس من أيام النصر للمنتصرين لأنه يوم يجمع فيه الناس كلهم ويعطى كل واحد منهم ما هو أهله من خير أو شر فكأن ماعداه من الأيام المشهورة فى تاريخ البشـــر غير ثابت الوقوع. وفرع عليه "فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا" بفاء الفصيحة لإفصـــاحها عن شرط مقدرنا شئ عن الكلام السابق والتقدير: فإذا علمتم ذلك كله فمن شاء اتخذ مآبا عند ربه فليتخذه أى فقد بان لكم ما فى ذلك اليوم من خير وشر فليختر صاحب المشيئة ما يليق به للمصير فى ذلك اليوم والتقدير: مآبا فيه أى فى اليـــوم. فمفعول المشيئة محذوف دل عليه الجزاء. وهذا التفريع من أبدع الموعظة بالترغيب والترهيب عندما تسنح الفرصة للواعظ من تهيؤ القبول لقبول الموعظة.

الإتخاذ : مبالغة فى الأخذ أى أخذ أخذا يشبه المطاوعة فى التمكن فالتاء فيه ليســـت لـــلمطاوعة[2] الحقيقيـــة بـــل هى مجاز وصارت بمنزلةالأصلية والإتخاذ: الاكتساب والجعل: أى ليقتن مكانا بأن يؤمن ويعمل صالحا لينال مكانا عند الله لأن المآب عنده لا يكون إلا خيرا فقوله "إلى ربه" دل على أنه مآب خير لأن الله – عز وجـــل – لا يرضـــى الا بالخير والجار والمجرور متعلق بما تقدم عليه اهتماما به

---

(١) راجـــع : اســـم الإشـــارة فى القرآن الكريم مواقعة وأسراره البلاغية مخطوط فى كلية اللغة العربية بالقاهرة – رسائل (دكتوراه) – لكاتب هذه السطور.

(٢) المطاوعة هى قبول تأثير الغير مثل دحرجته فتدحرج وكسرته فانكسر.

ورعايـــة للفواصل كأنه قيل: وإذا كان الأمر كما ذكر من تحقيق الأمر المذكور لا محالـــه فمـــن شاء أن يتخذ مرجعا إلى ثواب ربه الذى ذكر شأنه العظيم فعل ذلك بالإيمـــان والطاعـــة. والمآب اسم مكان من آب إذا رجع فيطلق على المسكن لأن المرء يؤوب إلى مسكنه ويكون مصدرا ميميا وهو الأوب أى الرجوع كقوله تعالى "إليه أدعو واليه مآب" (سورة الرعد/٣٦) أى رجوعى أى فليجعل أوبا مناسبا للقاء ربه أى أوبا حسنا.

ثـــم زاد فى تخويف الكفار فقال: "إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا".

وقوله تعالى "إنا أنذرناكم عذابا قريبا" اعتراض بين "مآبا" وبين "يوم ينظر المرء ما قدمت يداه" كيفما كان موقع ذلك الظرف حسبما يأتى.

والمقصـــود مـــن هذه الجملة – ولله العلم – الإنذار للمخاطبين بقوارع هذه الســـورة المـــباركة أو بها وبسائر القوارع الواردة فى القرآن الكريم بحيث لم يبق بينهم وبين العلم بأسباب النجاة وضدها شبهة ولا خفاء. فالخبر وهو "أنذرناكم عذابا قريـــبا" مستعمل فى قطع العذر وليس مستعملا – ولله العلم – فى إفادة الحكم لأن كون ماسبق انذارا أمر معلوم للمخاطبين.

وافتتح الخبر بحرف التأكيد للمبالغة فى الإنذار بتنزيلهم منزلة من يتردد فى ذلـــك وجعـــل المسند فعلا مسند إلى الضمير المنفصل لإفادة تقوى الحكم مع تمثيل المتكـــلم فى مـــثل المتـــبرئ من تبعة ما عسى أن يلحق المخاطبين من ضر إن لم يـــأخذوا حذرهم مما أنذرهم به كما يقول النذير عند العرب بعد الإنذار بالعدو: "أنا النذير العريان".

والإنذار : الإخبار بحصول ما يسوء فى مستقبل قريب وعبر عنه بالمضى لأن أعظم الإنذار قد حصل بما تقدم من قوله "إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا ...... فـــلن نزيدكم إلا عذابا" فسمى إنذار لأنه – تعالى – بهذا الوصف قد خوف

مــنه نهايــة التخويف[١] وقرب العذاب مستعمل مجازا فى تحققه وإلا فإنه بحسب العرف بعيد قال تعالى: "إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا" (سورة المعارج / ٦ و٧) أى لتحققه فهو كالقريب "فقد ميل ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آت" على أن العذاب يصدق بعذاب الآخرة وهو ما تقدم الإنذار به ويصدق بعذاب الدنيا من القتل والأسر فى غزوات المسلمين لأهل الشرك. وعن مقاتل: هو قتل قريش ببدر. ويشمل عذاب يــوم الفــتح ويــوم حــنين كما ورد لفظ العذاب لذلك فى قوله تعالى: "يعذبهم الله بــأيديكم.." (ســورة الــتوبة/١٤) وقوله "وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك"(سورة الطور/٤٧)[٢]

وقوــله – عــز وجل – "يوم ينظر المرء ما قدمت يداه... ترابا" يجوز أن يتعلق بفعل "أتخذ إلى ربه مآبا" فيكون "يوم ينظر" ظرفا متعلقا بــ"أنذرناكم" ويجوز أن يكــون بدلا من "يوم يقوم الروح والملائكة صفا" لأن قيام الملائكة صفا حضور لمحاسبة الناس وتنفيذ فصل القضاء عليهم وذلك حين ينظر المرء ما قدمت يداه أى ما عمله سالفا فهو بدل من الظرف تابع له فى موقعه.

وعــلى كلا الوجهين فجملة "إنا أنذرناكم عذابا قريبا" معترضة بين الظرف ومتعلقه أو بينه وبين ما أبدل منه.

والمــرء : اسم للرجل إذ هو اسم مؤنثة امرأة والاقتصار على المرء جرى عــلى غالب استعمال العرب فى كلامهم فالكلام خرج مخرج الغالب فى التخاطب لأن المــرأة كانت بمعزل عن المشاركة فى شئون ما كان خارج البيت والمراد – والله العــلم – يــنظر الإنسان من ذكر أو أنثى ما قدمت يداه وهذا يعلم من استقراء

(١) التفسير الكبير ٢٦/١١.
(٢) راجع : روح المعانى ٢٢٢/١٥.

الشريعة الدال على عموم التكاليف للرجال والنساء إلا ما خص منها بأحد الصنفين لأن الرجل هو المستحضر فى أذهان المتخاطبين عند التخاطب.

وتعـــريف "المرء" تعريف الجنس المفيد للاستغراق وفعل "ينظر" يجوز أن يكـــون مـــن نظر العين أى البصر والمعنى: يوم يرى المرء ما قدمته يداه. ومعنى نظـــر المـــرء ما قدمت يداه: حصول جزاء عمله له فعبر عنه بالنظر لأن الجزاء لايخلو من أن يكون مرئيا لصاحبه من خير أو شر فإطلاق النظر هنا على الوجدان على وجه المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق وقد جاءت الحقيقة فى قوله تعالى: "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا..." (سورة آل عمران/٣٠).

و "مـــا" موصولة منصوبة بـــ "ينظر" والتقدير: ينظر إلى الذى قدمت يداه صـــلتها جملة "قدمت يداه" إلا أن على هذا التقدير حصل فيه حذفان أحدهما: أنه لم يقـــل: قدمته بل قال "قدمت" فحذف الضمير الراجع الثانى أنه لم يقل ينظر إلى ما قدمت بل قال يتظر ما قدمت فحذف الجار[١]

ويجـــوز أن يكـــون من نظير الفكر وأصله مجاز شاع حتى لحق بالمعانى الحقيقيـــة كمـــا يقال: "هو بخير النظرين" ومنه التنظر: توقع الشئ أى يوم يترقب ويـــتأمل مـــا قدمت يداه وتكون "ما" على هذا الوجه استفهامية منصوبة بـــ"قدمت" وفعـــل "ينظر" معلقا عن العمل بسبب الاستفهام ولأن النظر طريق العلم والمعنى: ينظر المرء جواب من يسأل : ما قدمت يداه؟

ويجوز أن يكون من الانتظار كقوله تعالى: "هل ينظرون إلا تأويله" (سورة الأعراف/٥٣) والتقديم: تسبيق الشئ والابتداء به و "ما قدمت يداه" هو ما أسلفه من الأعمال فى الدنيا من خير أو شر فلا يختص بما عمله من السيئات فقد قال تعالى:

---

(١) مفـــاتيح الغيب ٢٦/١١ وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى بهامش تفسير الطبرى ١٢/٣٠ و ١٣.

"يـــوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملته من سوء ..." (سورة آل عمران/ ٣٠).

وقولـــه تعـــالى: "ما قدمت يداه" إما مجاز مرسل بإطلاق اليدين على جميع آلات الأعمـــال وإما أن يكون بطريقة التمثيل بتشبيه هيئة العامل لأعماله المختلفة بهيئة الصانع للمصنوعات بيديه كما قالوا فى المثل: "يداك أو كتا وفوك نفخ"[١] ولو كـــان ذلـــك على قول بلسانه أو مشى برجليه. ولا يحسن أن يجعل ذكر اليدين من التغـــليب كما قال العلامة التفتازانى بناء على أن أكثر الأعمال تزاول بهما[٢] لأن خصوصـــية التغليب دون خصوصية التمثيلية وشمل "ما قدمت يداه" الخير والشر. وخص بالذكر من عموم المرء الإنسان الكافر الذى يقول: "ياليتنى كنت ترابا" لأن الســـورة أقيمـــت عـــلى إنذار منكرى البعث أى يوم يتمنى الكافر أنه لم يخلق من الأحياء فضلا عن أصحاب العقول المكلفين بالشرائع أى يتمنى أن يكون غير مدرك ولا حساس بأن يكون أقل شئ مما لا إدراك له وهو التراب وذلك تلهف وتندم على مـــا قدمت يداه من الكفر فهو تعبير يلقى ظلال الرهبة والندم وقد كانوا يقولون "أإذا كـــنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا" (سورة الإسراء /٤٩ و ٩٨)[٣] فجعل الله – عز وجل عقابهم بالتحسر وتمنى أن يكونوا من جنس التراب ففيه دلالة على غاية الخيبة ونهاية التحسر، كما أن فى التعبير عنه بالإسم الظاهر بدلا من الضمير زيـــادة الـــذم وذكر وصف الكافر يفهم منه أن المؤمن ليس كذلك لأن المؤمن وإن

---

(١) هذا مثل يضرب للجانى على نفسه وأصله أن رجلا أراد أن يعبر نهرا على سقاء فلم ينفخها ولـــم يوكهـــا على ما ينبغى فلما توسط النهر أنحل وكاؤها فاستغاث برجل فقال له هذا القول (راجـــع: الألفـــاظ الكـــتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهمزانى/٢٤٧ وأمثال العرب للمفضل الضـــبى/١١٧ وجمهـــرة الأمثال للحسن بن عبد الله العسكرى ٢/٢٤٣ و ٤٣٠ والعقد الفريد لابن عبد ربه ٣/١٢٠ و ٤/٢١٠ ومجمع الأمثال للميدانى ١/٥٥ و ٢/٤١٤ وموسوعة أمثال العرب د/ أميل يعقوب ٥/٧٢١.

(٢) راجع : روح المعانى ١٥/٢٢٢.

(٣) وراجـــع : ســـورة الـــرعد /٥ والمؤمنون /٨٢ والنمل /٦٧ والصافات /١٦ و ٥٣ و ق/٣ والواقعة /٤٧.

عمل بعض السيئات وتوقع العقاب على سيئاته فهو يرجو أن تكون عاقبته إلى النعيم وقد قال الله تعالى: "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا..." (سورة آل عمران/٣٠) وقال عز وجل: "ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خير يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" (سورة الزلزلة/٦-٨) فالمؤمنون يرون ثواب الإيمان وهو أعظم ثواب وثواب حسناتهم على تفاوتهم فيها ويرجون المصير إلى ذلك الثواب وما يرونه من سيئاتهم لا يطغى على ثواب حسناتهم فهم كلهم يرجون المصير إلى النعيم وقد ضرب الله – عز وجل – لهم أو لمن يقاربهم مثلا بقوله تعالى: "وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون" (سورة الأعراف/٤٦) على ما فى تفسيرها من وجوه.[١]

وهذه الآية المباركة – أى آية سورة النبأ/٤٠ – جامعة لما جاء فى السورة من أحوال الفريقين وفى آخرها رد العجز على الصدر من ذكر أحوال الكافرين الذين عرفوا بالطاغين وبذلك كان ختام السورة بها براعة مقطع.[٢] والله –عز وجل– أعلم بمراده وأسرار كتابه.

وبعد:

فـ اللهم إنى أعوذ بك من كل كلمة قلتها حول كلامك العزيز لا ترضاها وأبرأ إليك من كل زلة غفل عنها القلب أو طاش بها الرأى وأتقرب اليك بكل كلمة كشفت لقارئها معنى من معانى قرآنك الكريم فنزلت منه منزلا حسنا وفتحت أمام أفقه نافذة من نوافذ كلامك الأسنى وأضرع اليك يا رحمن أن تجعل قلمى وفكرى

---

(١) راجع : تفسير الكشاف ٦٤/٢ ومفاتيح الغيب ٢٤٧/٥ – ٢٥١ وتفسير القرآن العظيم لأبن كثير ٢٠٢/٢ و ٢٠٣ وروح المعانى ٣٦٣/٤ و ٣٦٤ والتحرير والتنوير ١٤٠/٨ – ١٤٤.
(٢) التحرير والتنوير ٥٧/٣٠ و ٥٨.

ووجداني وحياتي كلها خدمة خاشعة لكتابك العزيز وقرآنك الكريم ومصحفك الشريف وأسألك يا الله أن تجعلني من الذين يرجون تجارة لن تبور"

"ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ..."

"ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب"

"والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين"

الدكتور
محمد عبد المنعم على متولي

فهرس الموضوعات